العلم الثقافي

المدير: عبد الله البقالي
سنة: 55
سنة التأسيس: 1969/2/7
الخميس 10 من جمادى الثانية 1446
الموافق 12 من دجنبر 2024

10 ، شارع زنقة المرج حسان الرباط
Bach1969med@gmail.com

من أعمال الرسام الإسباني أليكس ألماني

بالأمل سيكتمل في سوريا ربيعُها المؤجّل !

نكتفي بالنّافذة مع هاتف في اليد عسانا نُحقّق أعلى مُشاهدة، وكأني بما حدث اليوم في سوريا خير وسلام، مُجرّد تتمة مؤجلة لربيع انتعل كل الأقنعة، وسُمّي بهتانا بالربيع العربي، ولا نعرف على مَن الدّوْر وقد اصطبغ فينا الثور بكل الألوان، لا نعرف من الجلاّد ومَن الضّحية وقد امتدّت هوليود برُقْعتها السّينمائية في المعْمور، وأصبحت الآلام البشريّة مشارَيع أفلام على أرْض الواقع، هل تَنْكر أيها الرئيس المصنوع من شمْع أنّك ممثل بارع، تُبيد بيد المدنيين في غزة، وتكفكف الدمع بيد المواسي الورِعْ، نفس المدنيين المدفونين أحياءً في السجون الأسطورية لسوريا، ولا غرابة فقد تلاعبت قمم التغيُّر المناخي، تلك المنعقدة فوق الغيوم، بذكاء الربيعَ، لتجعل الخريف سيّد كل الفصول، وها أوراقهُ القانية ما زالت مُتناثرة في البلدان العربية، والأدهى أنها لا تكشف إلا عن أرقام خاسرة!

نكتفي بالنّافذة مع هاتف في اليد عسانا نُحقّق أعلى مشاهدة، ولا نعرفُ مع كثرة الألوية أيُّها يُمثل البلد، لا نعرف هل نفرح مع الفرحين لسقوط نظام الأسد، ومن أين يأتي الطّربُ، هل من عائد أضناهُ الحنين للدّيار، أو سجين تُزفّه للحرية حِمص ودمشق وحلبُ، من أين يَأتي الطربُ، وثمّة توجُّس يُحدّثنا في قرارة النّفس، أن الفرحة في لحظة نشوة قد تلهي العقول عمّا هو أعظم، ألمْ تر كيف تتّسع الفرحة أكبر في فؤاد العدو المتربّص بالحدود، أولئك الأوغاد الذين يستنفرون مع العروق الأسيجة في أعالي الجولان، ويقصفون مُقدّرات البلد من الأسلحة في دمشق، من أين الطّربُ، وها جريرة النّظام الغاشم تدفعه اليوم وغدا، أحد المعاقل العريقة للعروبة والإسلام بأهاليها في الشام !

ولكن لا بأس، فقد عشْنا حتى رأينا الدّوائر لا تنْغلق إلا على صانعيها دون مفاتيح، وكما أوْصَدوا الأبواب الحديديّة على الأبْرياء في سراديب إسمنتية خلف الشمس، ستُوصَد في أوجه الطّغاة كل السُّبل، وها هو ذاك الولد الذي حمل خطأً اسم الأسد، كما هجَّر الملايين يُهَجَّرُ هاربا من البلد، وكما دفع الشعب السوري للشّتات طالبين اللجوء في بلدان الغير، ها هو أيضاً قدْ توسّل اللّجوء مُتواريا في منفاه، ومَن يدري قد تستعيد العدالة الدولية سُلطتها المفقودة اليوم، ويُحَاكم على كل انتهاكاته المروِّعة لحقوق الإنسان، وقد يتعفّنُ وهو في أرذل العمر في أحد السجون إلى الأبد !

نكتفي بالنافذة مع هاتف في اليد عسانا نُحقِّق أعلى مشاهدة، ولا نعرف أي مَتْن يَصْلُح مطيّة للكتابة، ألَمْ تر كيف أصبحت كل الضمائر مطايا، هل نكتبُ شِعراً وما من مَنْفذ لتسرُّب الماء من الجدار، أم نكتبُ تحليلا سَياسيا وواقع الحال يَشرح نفسه بنفسه في رقْعة شطرنج تنهار، أمْ نكتفي بالنّظر الأخرس ونحن نسمع أغنية حزينة لفيروز، أو نرْقص مذبوحين على إيقاع القدود الحلبيّة لصباح فخري، والله لا نملك مع السرعة المونطاجية للأحداث في سوريا، إلا أنْ نُقطّبَ بخطوط الحيرة الجبين، لا نمْلك إلا أن نندمج بكل ما أوتينا من بُكاء، مع دور جهّزوه سلفا كما يُجَهّز الكفن على المقاسِ، فمنا في التّمثيل البطل الفاتح المحفوف بطير أبابيل، ومنّا السّجين الذي فتح آخر باب لعقله كي يطير، ومنا الشهيد الذي قُيّد في صُحف الدنيا مُجرّد قتيل، ومنّا مُتفرّجٌ أبْلهٌ لا يَعلَمُ أنّه بالتصفيق، يقترب يوما عن يومٍ من دائرة الحريق !

نكتفي بالنافذة مع هاتف في اليد عسانا نُحقق أعلى مُشاهدة، لكنْ تُرانا نستطيع أن نتجاوز أضعف الإيمان، مع كل هذه الفُلول التي يُجيِّشها من حولنا الشيطان، هل نستطيع أن نتغلّب على أنفُسنا كي نحرز الإنتصار على الآخر، ذاك الغازي المتربص بفريسته ليس فقط من كل الثغور، إنّما من خلل الإنقسامات الفصاميّة التي تعْتور ذاتية الإنسان العربي، لا مع هذا ولا مع ذاك كيف أكون مع نفسي، يا للتوزع الطائفي أو المذهبي أو التّكْفيري أوْ لنسميه ما شاءت تأويلاتنا للقَدَر، المهم أنّ هذا التشرذم في الأفكار، هو الذي يستغلهُ بكل القوى الأشرار، لينعكس بملامحه الفادحة علَى كعكة الأوطان !

محمد بشكار

سعيد بنسعيد والأشعرية

د. رضوان السيد

يأبى مؤلف «الخطاب الأشعري» إلا أن يحتفظ بشعلته التنويرية، مُتجاوزاً الطبعة الأولى الصادرة عام 1992 عن دار المنتخب العربي، ثم الثانية، ليصدر هذه الأيام في طبعة ثالثة عن دار المعارف على امتداد 311 صفحة، وكيف لا يتحلى هذا الكتاب الذي كان في الأصل أطروحة لنيل الدكتوراه، بهذه الروح التّجاوزية، وهو من تأليف مفكر وأديب مغربي كبير، اشتهر بأسئلته القلقة التي ما فتئت تُخلخل الثوابت، إنه الدكتور سعيد بنسعيد العلوي، صاحب مؤلفات بارزة من قبيل: الإيديولوجيا والحداثة، الاجتهاد والتحديث، الإسلام وأسئلة الحاضر، الوطنية والتحديثية في المغرب، الإسلام وأسئلة الحاضر.. إلخ أما هذه الطبعة الثالثة لـ «الخطاب الأشعري»، فلن نجد إضاءة أسطع من التقديم الذي كتبه لها المفكر والكاتب والمترجم الدكتور «رضوان السيد»، هذا نصه..

I

عندما ذهبنا للدراسة بالأزهر عام 1966 كانت الضجة بشأن الأصالة في الحضارة الإسلامية الوسيطة قد خفتت. أثارها الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر فيما بعد (1945-1947) في كتابه الصادر عام 1944 بعنوان: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ميّز الشيخ الذي كان أستاذاً للفلسفة بالجامعة المصرية بين أربعة تيارات في الحضارة الإسلامية أكثرها أصالة تيار أصول الفقه فتيار المتكلمين ثم تيار الصوفية، وأخيراً تيار فلاسفة الإسلام. وقد توزع تلامذته البارزون بين التيارات فاختار عبد الرحمن بدوي أن يبقى مع الفلسفة الكلاسيكية مع التطرق للتيارات الأخرى باستثناء أصول الفقه. في حين ذهب محمود قاسم باتجاه ابن رشد والمقارنة مع فلاسفة القرن السابع عشر. وذهب أبو العلا عفيفي ومحمد مصطفى حلمي باتجاه التصوف ودراساته. وانفرد علي سامي النشار بالانتصار للأشعرية، فألّف فيها وربّى عليها بعض تلامذته. وكل ذلك بين الأربعينات والستينات من القرن العشرين. وكما سبق القول فقد خمدت الجدالات خارج أسوار الجامعات، وانصبّ الهجوم على المستشرقين باعتبارهم رمز التغريب وإفقار الإسلام من خصائصه الحضارية. أستاذنا الشيخ عبدالحليم محمود عميد كلية أصول الدين وشيخ الأزهر فيما بعد، استعان بأساتذة من جامعتي القاهرة والإسكندرية ومنّ بينهم الشيخ محمد أبو زهرة والدكتور علي سامي النشار الذي نشر في صفوفنا نحن تلامذة الاتجاه التقليدي (وكنا ندرس المواقف للإيجي وشروحه) مما سماه الروح الأشعري.

عرفنا في السنوات الخمس(1966-1971) كتب ودروس سائر التيارات، وكانت الأشعرية ما تزال سيئة السمعة ليس بسبب الرشديات والعقلانيات فقط، بل وبسبب هجمة السلفية عليها أيضاً. وعندما ذهب بعضنا لإكمال الدراسة بأوروبا وتعلمنا لغات جديدة، وجدنا أن الغلبة في أوساط المستشرقين ظلت لابن رشد والصوفية ، مع نهوض في السينويات. وانفرد الدارس الأميركي ريتشارد فرانك بالكتب والمقالات عن الأشعرية التي لم يُترجم شيئٌ منها للعربية فيما أعلم.

II

لقد كانت شجاعةً وبصيرةً من جانب الأستاذ سعيد بنسعيد في الثمانينات من القرن الماضي اتجاهه لتقديم قراءة مختلفة للأشعرية، مذهب أهل السنة والجماعة، في أوساط وسياقات غير ملائمة بالمغرب. في تلك الفترة ما كان من السهل في أوساط الراديكاليات والراديكاليين الخروج من ابن خلدون وابن رشد وبقراءات معاصرة بالطبع. مسّ الأستاذ بنسعيد الموضوع في أطروحته للماجستير عن الماوردي، لكنه كان مهتماً أكثر بالجانب السياسي ونظرية الإمامة. أما في أطروحته للدكتوراه فقد ذهب مغامراً باتجاه الأشعرية في العقيدة والفلسفة ورؤية العالم. وقد اشتغل على أربع مسائل رئيسة: فكرة الافتراق المنهجي عن المعتزلة والحنابلة مع البقاء تحت مظلة علم الكلام أو الاستدلال العقلي والكلامي على العقائد من ضمن قياس الغائب على الشاهد ومذهب الذرة في خلق العالم أو تكونه- وفكرة الإمكان التي تعطي مكاناً واسعاً لرؤية العالم الإنساني بعكس النظرة السائدة عن الأشعرية حتى ذلك الحين في دراسات الدارسين- والفكرة المختلفة لفهم الأشعرية في مسائل الخير والشر ونظرية الكسب أو خلق الأفعال – والرؤية الجديدة لأسباب نجاح الأشعرية في القرنين الخامس والسادس عبر مفكريها الكبار من مثل الباقلاني والجويني والغزالي وحتى فخر الدين الرازي.

لقد تأخر نشر الأستاذ سعيد بنسعيد العلوي لأطروحته، فعرفنا أولاً كتاباته عن الماوردي وقد كنت مهتماً بها لأنني أعدتُ في السبعينات والثمانينات نشر قوانين الوزارة، وتسهيل النظر له. ولذلك أقبلنا على العودة لدراساته الماوردية. فلا نشرت أطروحته الأشعرية كانت مفاجأةً سارّةً، فعقدنا بمجلة الاجتهاد الفصلية ندوةً عن أشعرية سعيد بنسعيد العلوي أسهم فيها عدة دراسين. لقد اعتبرنا عمل الأستاذ سعيد تجديداً في فهم الأشعرية وأسباب سوادها واستتباها حتى مطالع الأزمنة الحديثة. وما أزال أعتبر أنّ في قراءته لمذهب الذرّة ولمسألة الكسب قضايا وجوانب تستحق المراجعة والاعتبار.

III

ما تابع الزميل الكبير دراساته عن الماوردي والأشعرية. بل انصرف لدراسات الحداثة والإصلاح في الفكر الإسلامي بمغرب القرن العشرين. وهو اختيارٌ له مسوغاته التي شغلتنا جميعاً منذ تسعينات القرن العشرين وحتى اليوم. بيد أنّ الزميل الكبير ظلّ أشجع منا عندما انصرف في العقد الأخير إلى الكتابة الروائية فحقق إنجازاً ثالثاً أو رابعاً بعد الماوردي والأشعري وكتابات الإصلاح.

وما تراجعت الكتابات الاستعراضية والتجديدية عن الأشعرية. فقد تابع ريتشارد فرانك استطلاعاته ونشرها بعد كتابه الأول في ثلاثة مجلدات. بيد أنّ أبرز دارسي الأشعرية في العقود الثلاثة الأخيرة كان الفرنسي دانييل جيماريه الذي نشر أواخر السبعينات نصاً لأبي بكر ابن فورك تلميذ الأشعري عنوانه: "مجرد مقالات الأشعري» أحدث ثورةً في فهم المذهب الكلامي للأشعري. واستناداً إلى الكتاب أنجز جيماريه دراسة ضخمة عن الأشعري وفكره الكلامي قبل أعمال الأشعريين الكبار. ويظن جيماريه أنّ تجاهل أعمال الأشعري بعد القرن الرابع الهجري يعود إلى التطورات الكبيرة والتطويرات التي أدخلها الباقلاني فالجويني فالغزالي على المذهب. وربما كان ذلك بين الأسباب في كتابة ابن عساكر في القرن السادس كتابه في الذبّ عن الأشعري. فالأشعري حسب هذه الرؤية متكلم كبير، وهذا هو رأي جيماريه أيضاً. وبين تلامذة جيماريه ثلاثة أو أربعة نشروا نصوصاً أشعرية لمعاصرين للغزالي، كما نشروا نصوصاً ماتريدية، وقاموا بمقارنات بين المذهبين أو المدرستين أيام السَلاجقة وأيام العثمانيين.

يقوم الأستاذ سعيد بنسعيد العلوي بنشر كتابه عن الأشعرية من جديد. وشأن كتابات الأستاذ الأخرى في مختلف الموضوعات فإنّ كتاب الأشعرية على وجه الخصوص يستحق بالفعل نشرةً جديدةً لأنه لم ينتشر من قبل كما يجب. ولأنه يُنشر بمصر لأول مرة فستكون هناك مقارنات بينه وبين أعمال الأزهريين الذين نشطوا- مثل المغاربة- للكتابة عن الأشعرية في العقد الأخير.

تمثال يعلوه غبار

مصطفى ملح

بالأَمْسِ مَلاكاً كُنْتُ ،
تُقَبِّلُني أُمّي وأَبي وبَناتُ العائلَةِ الحُلْواتُ ،
وكُنْتُ أَدُسُّ فِخاخاً في المُنْخَفَضاتِ ،
وأَنْتَظِرُ السَّمّانَ وبِنْتَ الجارِ ،
وصَوْتَ أَذانِ المَغْرِبِ في رَمَضانَ.

وحينَ هَرِمْتُ كَثيراً ..
صارَ لِبِنْتِ الجارِ حَفيدٌ مِنْ رَجُلٍ غَيْري ،
وفِخاخُ المُنخَفَضاتِ قَدِ انْكَشَفَتْ ،
فَغَدَوْتُ مُجَرَّدَ ديكورٍ بَشَرِيٍّ ،
يُعْرَضُ في جَنَباتِ المُتْحَفِ بِالمَجّانِ !

وفي الإعْداديَّةِ قُلْتُ لأُسْتاذِ التّاريخِ أُعارِضُهُ :
عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدّاخِلُ لَمْ يَخْلُدْ ،
أَمّا قَصْرُ الحَمْراءِ فَباقٍ في غَرْناطَةَ ،
يَنْكَسِرُ البَشَرِيُّ وتَحْيا الفِكْرَةُ في حَجَرِ الجُدْرانِ.

وصَقْرُ قُرَيْشَ يَصيرُ اسْماً مَنْسِيّاً في سِيَرِ الأَمْواتِ ،
وأَنْتَ تَصيرُ غَداً لَقَباً يَتَوارَثُهُ الأَحْفادُ ،
وأُسْتاذُ التّاريخِ يَموتُ وعائِلَتي تَفْنى ،
وأَنا – التِّلْميذَ السّارِدَ – أَفْنى ،
والتّاريخُ يَموتُ أَخيراً ..

ثُمَّ يَحُطُّ غُبارٌ في قَصْرِ الحَمْراءِ بِغَرْناطَةْ ،
ويَجولُ اللّهُ الواحِدُ في نورِ المَلَكوتْ !

في آخِرِ يَوْمٍ لي سَأُقِرُّ بِأَنّي كُنْتُ جَباناً ،
أَشْبَهُ نِصْفَ إِلَهٍ في الإِلْياذَةْ؟
كَلاّ ، لَسْتُ كَذَلِكَ : كُنْتُ أُشَكِّلُ أَوْهاماً في الوَرْشَةِ ،
أَنْفُخُ في الصَّلْصالِ لِتَبْتَسِمَ اليَرَقاتُ ،
ولَكِنّي لا أَصْنَعُ إلاّ مُنْعَرَجاتٍ في وَرَقي ..
مَنْ كُنْتُ؟
بِرِجْلي سِلْسِلَةٌ ووَرائي الحارِسُ ،
لا أَدْري هَلْ كُنْتُ السّاحِرَ؟
أَمْ قَدْ كُنْتُ الشّاعِرَ؟
قُبَّعَةٌ في رَأْسي قافِيَةٌ في قَلْبي ..
كُنْتُ جَباناً مُنْذُ وُلِدْتُ ،
أَموتُ الآنَ بِلا مَجْدٍ : تِمْثالاً مِنْ حَجَرٍ يَعْلوهُ غُبارٌ ،
أَوْ تِذْكاراً مِنْ عاجٍ في صُنْدوقٍ مَنْسِيٍّ !

من أعمال الرسام والنحات الكويتي سامي محمد

مَنْ سَأَكونُ غَداً أَوْ بَعْدَ غَدٍ : شَرْخاً في مِرْآةْ؟
أَمْ نافِذَةً تَتَسَلَّلُ مِنْها روحٌ مُرْهَقَةٌ ،
لِتَسيحَ بِلا قَيْدٍ في أَرْضِ اللّهِ؟

أَكونُ الماءَ أَكونُ النّارَ ،
وبَيْنَهُما شَهَواتُ الضِّدِّ المُطْلَقِ ،
أُولَدُ مِنْ رَحِمٍ عُلْوِيٍّ بَيْنَ مَجَرّاتٍ ونُجومٍ ،
يَرْضى اللّهُ عَلَيَّ فَأَسْجُدُ لِلْمَلَكوتِ وأَبْكي ،
لا أَحْلُمُ بِالواحاتِ وأَزْهارِ البُسْتانِ ،
ولا بِنَشيدِ المَدْرَسَةِ الأُولى ،
فَأَنا عالٍ كالصَّقْرِ ،
وأَعْلى مِنْهُ بِتَوْقيتٍ ضَوْئِيٍّ ،
كَيْفَ أُفَكِّرُ في الأَرْضِ ،
وفي غَزْوِ الأَمْصارِ وسَبْيِ إماءِ البُلْدانِ المَهْزومَةْ؟
ما عاداتْ تُغْرِيني الأَرْضُ ،
أَعيشُ بِلا جَسَدٍ وبِلا بَلَدٍ ،
وبِدونِ حُروبٍ أَوْ شَهَواتٍ ،
حَسْبي أَنَّ الرّوحَ هِيَ الجَسَدُ الرَّمْزِيُّ..

أَنا في الأَرْضِ مُجَرَّدُ جُثْمانٍ ،
لَكِنّي حَيٌّ فَوْقَ سَماءِ اللّهْ !

لن يضيرني في شيء ألا يكون فوق رأسي تاج وفي يدي هذا القلم.
هربرت جورج ويلز

الكتابة بالجسد المعطوب

عزيز الحاكم

المعاناة المزدوجة

عادة ما يتستر بعض المثقفين على أعطابهم الجسدية والنفسية دون أن تسعفهم الشجاعة على البوح بها، فينتج عن ذلك أن يزدادوا عطبا وانهيارا. لكن اسمهان عمور بعنفوانها المعهود وجرأتها غير المشروطة تكسر هذه العادة السيئة وتعلن على الملأ ما كابدته من أوجاع وفواجع، بغية تدجينها وتحويلها إلى ذرائع تعبيرية للانتصار على الألم. أليست الكتابة أرخص علاج لكل الأدواء؟

المعطوبون والأشقياء، المكتوون بتراجيديا الوجود، هم الذين يكتبون. أما السعداء السادرون في غبائهم اليومي فهم منكبون على فتات الأرض، ونادرا ما يرفعون رؤوسهم إلى السماء إلا من باب التضرع إليها كي تمطر فيزدادون ثروة وبلادة.

ضد هذا الاختيار تمضي بنا اسمهان عمور في مذكراتها «الصحفية» على طريق البحث عن ملاذ بديل لما عانته من تهجير وفقد وهي في مقتبل الشباب بعد وفاة أبيها وهو في الثامنة والثلاثين من عمره إثر حادثة سير. وما أكثر حوادث» السير» في حياة اسمهان عمور، لأنها ابتليت بحساسية مرهفة عرضت جسدها ونفسيتها لأعطاب كثيرة. وهذا ما يضفي على كتابها « نكاية بالألم « مصداقية راسخة توفر لنا فرصة التعرف على تفاصيل المعاناة الإنسانية بصفة عامة (بحكم أن الكاتبة لا تكتفي بتصوير معاناتها بل تذهب أبعد من ذلك وتنقل إلينا معاناة الآخرين) ومعاناتها هي بصفة خاصة، وتتيح لها في نفس الوقت إمكانية التشفي في الألم والانتصار عليه ولو بالكلمات. وبذلك يتحقق لها التطهر الأرسطي على نحو مكتمل.

من الصوت إلى الحرف

أخيرا وبعد حوالي أربعة عقود من العمل الإذاعي والاشتغال بالصوت المسموع، تودع اسمهان عمور صوتها الطروب (المتناغم مع اسمها) علبة التقاعد وتلملم شتات الذاكرة بما تراكم فيها من أحداث وحالات ومعايشات وتأملات حفرية، في أضمومة نثرية تجمع بين الرصد والوصف التصويري والتأمل واستبطان المشاعر الشفافة. تكتب في نص»رقم في إحصائيات المعطوبين»:

قد يصاب الجسد بالعطب بعد أن يتوه في دوامة العمر. «

جسد لم يعد قابلا للاحتماء وراء رقم استدلالي في صنف دواليب الإدارة. ووهن الجسد بعد أن تحمل طويلا نوائب الدهر.

همسات الجيران وغمزات أقرب الناس إلى الوريد.

قد نقضي زهرة العمر في الأمل والحلم.. نبني عشا.. نطعم أفواها..

نبتاع بيتا فينخرنا الدين بالتقسيط. وتذبل زهرة العمر فنظن أننا صرنا آمنين من لسعات البنك وفواتير المدارس والجامعات ، لنستفيق على أعطاب كثيرة جرت هذا الجسد إلى أسرة بيضاء ، وسحبت الدم لاختبار ما أصابه من وهن وعلل «، ص 39 .

بهذه الكلمات الصائتة تستحوذ اسمهان عمور على مناطق الأسى كي تصوغ منها حقولا تعبيرية ترقى بالألم إلى منزلة الفرح المؤجل، من دون أن تستسلم للتشكي المهزوم . وهذا ما يؤهلها لمنازلة المأساة وتحدي الأقدار القاسية بالاحتواء المطلوب، عملا بقولة ابن سينا « الاطمئنان نصف الدواء، والصبر أول خطوات الشفاء».

ورغم ما قد يُستشف من ظاهر التعابير لدى اسمهان، من هشاشة وانكسار، إلا أن ما يكمن خلفها من دلالات مضمرة يكشف عن رغبة قوية في اعتصار الألم ومقاومة أعطاب الجسد:

« تمردت على هذا الجسد... تحديته في مكابرة وعناد : إلى متى الخنوع لسلطة الوزرة البيضاء ممرضين وأطباء ؟

كف أيها الجسد عن الشكوى وكن رحيما بالروح التي نُفخت فيك فأنت لم تعد تقوى على تلصص العيون في القطار ولا على دخان السجائر المنفوث في الحافلات.

لم يخذلني جسدي... لم يعد يفضح ضعفي... هزمت حُقن البينيسيلين والإكستونسيلين وحبات القلب اليومية... تعديت الكشف بأجهزة السكانير وما تلاها من أجهزة مبتكرة... ذاكرتي تطوعت هي الأخرى فشطبت مساحة الألم. هكذا ولسنين طويلة لم أشكُ من ضعف البدن .»- رتق الجسد ، ص 93-94

الترحيل واليتم وجهان لنفس الجرح

إلى جانب ما عانته اسمهان عمور من نوائب العيش ثمة لحظة قاسية اجتازتها بما لا يخلو من ارتجاجات نفسية، فقد كان عليها وهي في سن العاشرة أن تُقتلع من مرتع الطفولة «أهرمومو» إلى مدينة وجدة في ما يشبه نفيا لم يكن في الحسبان، بقرار تعسفي من الإدارة العسكرية. هذا الترحيل المفاجئ تصفه اسمهان عمور في مشهد يذكرنا بما يتعرض له المدنيون في أوقات الحروب:

« في ليلة خريفية وجدنا أنفسنا (نحن أفراد الأسرة) مكدسين إلى جانب «الرحيل»(الأثاث) في شاحنة تقودنا إلى وجهة شرقية .

كان قرارا رسميا بمغادرة كل ساكنة المدرسة العسكرية أهرمومو إلى وجهات مختلفة فكان نصيبنا مدينة وجدة سنة 1971، والسنة دالة على سبب الإفراغ التام.

كانت الرحلة طويلة جدا نحن الذين لم نتعود على السفر إلا إلى مناطق مجاورة. قطعت الشاحنة مسافات خلناها لن تنتهي» ص 47 .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، ذلك أنها بعد هذا الاجتثاث ستُنكب في وفاة والدها:

«آخر حبات السنابل التي تذروها الرياح هي تلك التي شاهدتها في قريتي سنة 1978حين

شهادة في حق الإعلامية / الكاتبة اسمهان عمور

انقلبت عطلة الصيف إلى مأتم وفجيعة. رحل الوالد إثر حادثة سير. جاء النعي مدويا .

امتلأت مساحة الأرض المحيطة بالبيت الإسمنتي بناس الدوار. صراخ وعويل لفقدان رجل جاء راغبا في متعة صيف وطمعا في رضا الوالدين.

نحيب الجدة المكلومة والمكومة جنب الحائط يكاد يشق الصدر والصخر، استعصت دموع الفقد وغدر الموت على أن تنهمر.» ـ قرية شاهدة على غدر الموت ، ص 50.

وباجتماع النفي واليتم يكتمل طوق المأساة وتغدو الحياة شبيهة بجنازة يومية ، يزيده حدة رحيل الأحبة والأصدقاء(إدريس أوهاب، محمود الإدريسي ، محمد بلخياط ..). لكن اسمهان عمور لا تكتفي بالإصغاء إلى حزنها الشخصي بل إنها تخصص مساحة وافية لرثاء الراحلين في عز الوباء السوريالي « كورونا» الذي تخصص له أكثر من وقفة على شواهد قبور من تعزهم . وحينها يلتقي الأقارب والأصدقاء في نفس القبر، ويكون عليها أن تكفنهم في نفس الصفحات .

ومن المشاهد المؤثرة التي تفرد لها الكاتبة وقفة خاصة نص» سامية» حيث تتقاطع مأساتها الشخصية مع مأساة فتاة أخرى حرمها القدر اللعين من أية ذكرى يمكن أن تشكل عزاء لفقدان الأب:

« أتى صوتها منتحبا، أحسست بمحجري عينيها يحملان من الدموع ما يسقي الألم. لم أرها، بل سمعت شهقات الحزن في صوتها مرددة : لم أعش معه، ليست لي صور، ليست لي ذكريات. تعجبت للأمر كيف لفتاة هي الابنة الوحيدة بين أقرانها الذكور ألا تكون ذاكرتها قد اختزنت من مراحل الطفولة والشباب ما يغنيها عن النحيب بعد رحيله ؟

آلمتني كلماتها «بابا حي وما عشتش معاه ، ما عندي معاه حتى صورة»، أليس هذا مؤلما ؟ أحسست بهذا الألم وأنا التي أبحث دوما دون فقد أمل عساني أعثر على صورة لي مع والدي ، الذي غادرنا مبكرا وعمره لم يتجاوز 38 سنة ولا نملك من صوره إلا وهو بزيه العسكري وسط جموع تلامذة مدرسة أهرمومو». ص 25.

وبنفس العاطفة تصور لنا اسمهان عمور جانبا من معاناة الكادحين في تنقية الشوارع من أوساخ الآخرين في مشهد يذكرنا بأفلام الواقعية الإيطالية. تكتب في نص شبيه إلى حد كبير بقصص الراحلين محمد زفزاف وإدريس الخوري اختارت له عنوانا مشحونا بأكثر من دلالة :» شارع باتريس لومومبا»، فقد اعتادت أن تستفيق في كل صباح ، و قبل أن تتشابك خيوط الشمس لتنير المدينة، أن تفتح شباك نافذة بيتها المطل على هذا الشارع لترى:

« عامل النظافة يجر صندوق القمامة ويسحب ما علق بالأرض بسعف نخلة. لا ينفك عن سماع ما تيسر من القرآن الكريم لعل الترتيل يقلص ما انتابه من ألم حمل السعفة وسحب الحاوية . وجه عامل النظافة أصبحت آلفه ولا أخطئ تفاصيل قامته وحركات مشيته . فقد تعود أن يثقل المشي والسحب جنب البناية، ولذلك أحسست بأن الرجل يرمقني خلسة كل صباح منتظرا انفتاح الشباك لتسقط ورقة نقديه ملفوفة بعناية فيتناولها داعيا لي برحمة الوالدين، وأنا أراقبه متجها إلى الطرف الآخر من الشارع منتشيا، وكلما خطا أحسست بسهام الفرح تنغرس في آدميتي « ص 30.

نادرا ما نعثر على مثل هذه المشاعر الإنسانية القوية في نصوص الكتاب العرب بوجه خاص، تمسكا منهم بالوصف المحايد وبنرجسية فائضة لا مبرر لها. وهذا ما يضفي على نصوص اسمهان عمورطابع الانحياز إلى البسطاء والمقهورين (نساء ورجالا) في عالم تلاشت فيه القيم النبيلة. يتبدى ذلك بشكل واضح في نصوص:

المعطوبين ـ عرائس أم فرائس؟ـ خدمة متنقلة ـ بيت تشي جنباته من العقم ـ إعاقة وتضامن ـ طرق وفزع وأصفاد ـ نساء سوق الجملة ...

الاحتفاء بالحياة رغم كل شيء

لا تكتفي اسمهان عمور برتق الجسد وكنس الذاكرة من شوائب الدهر، بل إنها تقيم على أنقاض ذلك عرسا جديرا بإشراقات الحياة. وهذا ما يتجلى بوضوح جذاب من خلال احتفائها بالاسم المتفرد الذي اختاره لها والدها:

« بعد سنين طويلة علمت أن الوالد المغرق في الأمازيغية والمنغمس في قاموس اللغة الفرنسية قد استهواه صوت المطربة اسمهان وهي تغني «ليالي الأنس» حين كان يلتقط عبر مذياعه الصغير ذبذبات الإذاعة، وحين وقف في مكتب تسجيل المواليد الجدد قفز اسم اسمهان إلى ذهنه لتكتب حروفه في شهادة ميلادي .

فهل تكهن الوالد بأن الذبذبات التي أطلعته على اسم مشرقي، هو في الاصل فارسي، هي نفسها الذبذبات التي حملت اسمي إلى جمهور في غرب الوطن وشرقه ؟» ص 86.

يلي ذلك خوضها تجارب إعلامية دولية عبر مجموعة من المحطات الإذاعية والتلفزيونية (إم بي سي ، بي بي سي، الدوتشه فيله) أتيح لها فيها أن تجاور إعلاميين متميزين في كل من لندن وبرلين وأن تصقل تجربتها الإعلامية عبر برامج ثقافية وإخبارية :

« لم أكن أعرف عن ألمانيا إلا موديلات سياراتها المرسيديس أو الفولكسفاغن (...)

DWوفي مبادرة لا أعلم مصدرها تمت شراكة بين القناة الألمانية الناطقة بالعربية

والقناة المغربية. وجدتني مترددة وبقوة في عدم قبول دخول هذه التجربة التلفزيونية على الرغم من كونها ثقافية بامتياز، ترددي كان بدافع تخوفي أو تحفظي من مدير القناة المغربية نفسها، هو الذي لم يألُ جهدا في استنزاف طاقة الحسين العمراني حين اشتغاله في قسم الإنتاج التلفزيوني كمعد لسهرة «نغمة واتاي» وما لحقه من ضرر معنوي يوم توصل بخطاب إداري موقع من رئيس القسم يطلب فيه التحاق الحسين العمراني بالمصالح الإدارية مع أنه لم يكن يعرف من شؤون الإدارة إلا استلام الوثائق أو تراخيص العطل». ص 81.

وفي سياق نفس الاحتفاء بمثل هذه اللحظات المقتطعة من السياق التراجيدي الذي عاشته، تعرج بنا اسمهان عمور، بما لا يخلو من انتقاد ساخر، على مناسبة لا عهد للعرب بها ، والمتمثلة في عيد الحب:

«سان فالانتان عيد دخيل على مجتمعنا تلقفته فئة من جيل جديد ليس إيمانا منها بقوة الحب بل لفرط التقليد والتشبه بعالم آخر اعتاد على عيد كهذا. قد يعسُر على البعض اقتناء الهدية، وقد لا يجد إليها سبيلا أولئك الذين يعيشون على حافة الحاجة والضنك، بالكاد يقتاتون حتى لا يفضحهمُ الهزال... أليست هي مناسبة لنرفع التظلم والتشكي من قسوة الحياة التي دمرت خلايا الحب فينا ونستسمح في كل نبضة قلب هذا الجسد الذي أنهكناه ولم نمهله لحظة لنضخ فيه كلمات الحب في عيد الحب؟

وهل ننتظر يوم 14 يبراير- عيد الحب- لنعبر من غير هدية عن حبنا لتربتنا وذوينا، لأصدقائنا المخلصين وصديقاتنا ؟» ص 124-125.

الكتابة المرئية

كل هذه اللحظات التي عاشتها اسمهان عمور بكل ما أوتيت من عناد وإصرار على تنظيف معيشها من أدران المعاناة تلتقطها هنا، في هذا الكتاب الزاخر بالوقائع والأحداث والتأملات المريرة في ما يحيط بحياتها وبمجتمعها، بعين منغمسة في صميم اللحظة بكل جوارحها، لتكثفها في محكي مسموع ومرئي، يجعل النصوص / المقالات أقرب ما تكون إلى مشاهد سينمائية في مسلسل درامي ينضح بالمرارة من دون أن يسقط في البكائية المستجدية، ذلك أن هذه الإذاعية الوافدة إلى عالم الكتابة من خلف المذياع لم تتخل عن حيويتها ورصيدها الثقافي في مجموعة من البرامج التي كنا نترقبها عبر أمواج الإذاعة المغربية ك : « حقيبة الأسبوع « و» زهور» و»بانوراما» و» حبر وقلم « الذي حظيت فيه شخصيا بالاستضافة سنة 2016 ، وبرنامجها الموسمي « لآلئ من الشرق وأدباء من أرض الكنانة» والبرنامج المشترك « أزواج متألقون» الذي كانت تعده برفقة زوجها وزميلها في العمل الأستاذ الحسين العمراني.

هنيئا لنا إذن بهذا الإصدار الذي سيغني المكتبة الأدبية التي تفتقر إلى ما يساعد على توثيق الذاكرة الصحفية وإنعاشها، ويضيء السبيل أمام الأجيال القادمة التي تفكر في خوض هذه التجربة الإعلامية النبيلة.

ومرحبا بك ، عزيزتنا ، في هذا المشفى الإبداعي الذي نتكافل فيه جميعا على معالجة أعطابنا بالكلمات الباذخة ...

قُدمت هذه الورقة في حفل تقديم وتوقيع كتاب» نكاية في الألم « للإعلامية الكاتبة اسمهان عمور يوم الأربعاء 4 دجنبر 2024 في المكتبة الوطنية . الرباط .

كُسكُس بالقديد

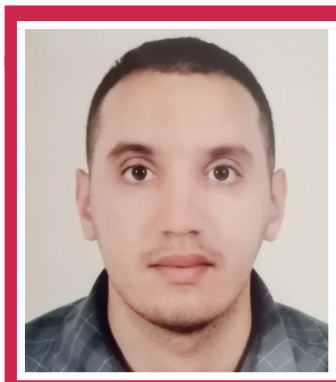

هيثم هماموني

وهكذا يا سادتي اقتربت من قِدر المرق، واشتممت رائحة.. هالهم الأمر وأتى إلى مسمع لالة فاطمة صوت يقول:

-لو أننا تأكدنا أولا قبل خلط المقادير مع القديد

القرية تجلس تحت سحابة شفافة، منشورة فوق عين ماء عذب، فيها جيران زمرة لالة فاطمة وما جاورها، حين يسقط طائر أفكارهم على إعداد صدقة تشمل الموتى ممن وارتهم المنية. يتذكرون بنت السالكة، وولد داود والآخرين. ماض قديم جدا وأشخاص لا يزالون في ذكرى اشتياقهم. نساء يجلسن على بساط سعف نخل بالي الأطراف. كل واحدة تعمل في جد لكن ألسنتهن كذلك لا تتوقف عن الكلام هنا وهناك. عادت ذاكرة فاطمة بولد محجوب، ذلك الرجل الفارع الطول، إذا قفز وكأنه يلامس السماء بشعر رأسه الخشن. قالت وهي تكتم عطسة مباغتة:

-رحم الله ولد محجوب، كلمّا سمع رقصة كناوة، تملّكته هيستيرية عجيبة، يعربط وحده كالمجذوب. أما إذا حمل الطبل فلا يرخيه إلا وقد ذبلت يده المتخشبة. كنت أظنّ أن يديه تتناوبان على غشاء الطبل المهدود. عادة ما يرأس الرقصة بإيقاعه المتناغم. يرقص لها قلب النخلة في الساحة جيئةً وذهابا. لكن الموت أخذه منا بغتة، يقال والله أعلم أن ملاكًا قد حمله وكفنه بنفسه في تلك الليلة. رأوه بوجه وضاء كالقمر ليلة اكتماله. غريب أمر القدر، ما ترك في الأولين أحدًا غير لالة يمنة، مدينة من الأسرار والنعيم.

أصبحت ردهة الأبواب الموارية لمنازل الجارات مضروبة بالأطفال، يلاعبون القطط تحت شجرة سدر يابسة في ركن الحائط. أكملت لالة فاطمة تكوير السميد، فيما عكفت الأخريات على تقشير الخضروات السبع، يسندن ظهورهن إلى حائط طيني متآكل، إذا نظرت إليه في استرخاء بانت رقعة العالم الممتدة أمامك، وغطست بك نسمات الجنوب خارج حدود الزمن. في حين لالة رقية توقد النار وتضع القدر والكسكاس، على حين غرة كادت فتيلة نار تلهب إزارها القاتم. ضحكت لالة فاطم بلا استهجان ثم أدارت دفة الحوار صوبها:

-عينك على النار لا الإزار، من خرج إلى الدنيا لم يخرج من عواقبها، لطفك، صدقت لالة يمنة نقود البطاطس أكلت البطاطس.

ضحكوا جميعًا فيما استفسرت عائشة عن الواقعة. فانطلقت عايدة تمسح دموع الضحك وهي تتململ في إزارها الواسع، وتفرج رجليها شيئا فشيئا، وكانت ضحكتها خشنة كصوت المنشار في الخشب:

-عام الخير، الناس تزرع وتحصد، وتدخل منازلها الخير حتى يبقى في الحقول فدادين قمح وجبال شعير، يلتقي الملتقيان في الطريق فيود كلّ واحد أن يتصدق على الآخر فلا يجد مسكينا أو معدومًا. والعيون تجري أنهارًا وتسيل في طريق طويل لا ينقطع، سمعت أنّ سيدي المحجوب باركه وقال بلسانه: «يعلم الله أن هذه العين هي حياة القرية كلّها إن لم أقل حياة المدن البعيدة. يحسدوننا عليها، وسمعت أن البرتغاليين سيجعلون منها مزارًا لسيّاحهم، تجري فيها تماسيح النيل والدلافين، هؤلاء يدخلون على الشيء فيصبح في خبر كان. قوموا عباد الله من سباتكم العميق، واضربوا بفؤوسكم تينع ثمار الخيرات ببركة الله وبركة العين»؛ أذكر عندما يتحدث ترهف له الحيطان الرثة، وينقمع الظلام فينقلب ضوءًا ينسكب على الوجوه والعيون.

فاض الكسكاس، استوى جبلا من الكسكس، رعت لالة يمنة النار على قدر معلوم، وأخذت القدور تنضح بخارا تفوح منه رائحة القديد. استدارت عند لالة عائشة، يداها المكتنزتان مخضبتان بالحناء، إنها امرأة مباركة كما قال الحاج فارس في إحدى المرات:

-لالة عائشة امرأة مباركة تضع يدها على الجرح فتذهب البأس بقدرة قادر، ليست بدينة، ممتلئة كعود قصب السكر، تفوح عطرًا، عيناها يختلط بهما الحزن والحياء. أتذكر ذلك اليوم القائظ، دقّ الباب أحدهم بحدة مهرولا من عاصفة فإذا بي أجد امرأة متوسطة القدّ تحمل رضيعًا لم يكمل عامه الأول، تستنجد ببركة لالة عائشة، أدخلتها بلا مقدمات، علمت في آخر الأمر أن التنفس استعصى على صغيرها، ولم يلبث حتى بكى في غضون دقائق كأن روحه تعود من عالم الأموات إلى الحياة. قالت والفك مائل إلى الأمام بكبرياء «الله الشافي العافي، إنما هي بركته».

دفعت لالة فاطمة الطاولة برجلها عدة بوصات، وهي تطبطب على لالة رقية التي انحنت هي الأخرى بجسمها المترهل على لالة عائشة. كنت أظنّ أن أشجار الزيتون وحدها تتشابك وتنمو من لب جذع أمها، لكن عدلت عن الفكرة حينئذ. كان شيئا متحرّكا وسط عالم ثابت. كنت أطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة. أنظر إليها في لحظة لا تزيد عن مقدار ما تشيل الذاكرة وتختفي. بسطت السماء هدوءها الفضفاض على الردهة والأطفال، يتباكون تارة وينطلقون في ضوضاء لا نهاية له.. تفرّد الجمع بحرارة باركها الحاج محجوب، بقامته المائلة وساقه المجهدة، يسدل طاقيته المكشوفة إلى الأمام وكأنه في حالة حرب، قال موجّها كلامه إلى الرقعة عند منغرس عصاه:

- ما تقدّمْ به خير كبير، في سبيل الله، يعيده أضعافًا مضاعفة، الطعام بلا حديث وأنس، كالجسد بلا روح، بلا طعم، رحمهم الله، ما زلت أذكرهم فردًا.. فردًا

بعماماتهم وزرّاتهم الطويلة، يقف الحاج بشير برجل واحدة وهو يتلو الأعراف من الألف إلى الياء، ثم يعود عليه الدور في السقاية لردّ الماء باتجاه شخص آخر. يعود ينقش بعكاز التراب رثاءً، كان يكوّر اللقمة في يده فلم نلحظ ما فيها ونحن في عرس ولد عروب، رمى بها وهي سائرة إلى فمه في أمان، إلى أن دفعه كتف الشيخ سالم ففقدت طريقها والتصقت بالحائط، حسبناها بالتمام والكمال، كيلو من كلّ شيء، جزر وقرع وباذنجان...رحمه الله.

استأنسن بالحديث قبل ملاعبة كويرات الكسكسي، تعاونوا في فتل الكسكس ثلاث مرات قبل تزيين الطبق بالمرق والخضر، ولا أخفيكم سعادة الأطفال قبل الطهية الأخيرة، تناوبوا على كرياته المفتولة في أيدي لالة عائشة المباركة، مستنجدة برأي الأطفال، مالح، حلو، كيف هو؟ فلا تنطق أفئدتهم حتى يقربوا من انتشال جوعهم. حسنا، هذه المرة الأخيرة حتى يوضع على المائدة، هكذا تنهي الجدال.

في غمرة الشهوة والجوع معًا تعود لالة رقية تتلفت يمينا وشمالا، بحماس وانفعال:

-رائحة ما لا تعجبني، أ هي رائحة القديد؟

-لا أعلم ربما روائح الأزبال التي يحملها الهواء إلينا، صدقت نقود البطاطس تأكلها البطاطس، زرعت سبعة فدادين بطاطس وهيّأت لها كلّ ما يلزم، عروب الساقي صباح مساء، ولكن الحاصل ما لم يكن في الحسبان، تكدست البطاطا في السوق، فاضطرت إلى بيعها بثمن بخس .. دراهم معدودات، ضربت كفًا بكف ثم لم تعد لزراعتها مجددًا.

نطقت لالة فاطمة وهي تجيل بنظرها إلى القدور التي تفور على نار هادئة، والعالية تشرشر الشاي على طريقتها الصحراوية، وتربّعها قرب الصينية وهي تهش على الذباب، يحط على الحائط ويعود ليقطع الحديث:

-قدر، ولو، فيها خير..

-كما ترين رأي العين، عجزت المسكينة، منذ أن سقطت في الحمام، تلك السقطة، لا تحبين أن تحدث حتّى لعدّوك، لم تدم مدّة حتى ودّعت، هي التي كانت تجمعنا وتهيّء لنا حمام منزلها البلدي، ونضحك ونلعب إلى أن يؤذن أذان المغرب.

سكتت لبرهة، فالقدور تصعد وتنزل بسلام، فاطمة تمضغ سواكها على مضض، فاتت إحداهن صلاة العصر فصلتها على عجل. القط السمين يتبختر فوق الجدار بروية ووقوف على أهبة الاستعداد، الحفلة تشمل الإنسان والحيوان، والنخل، والسدر، والجماد. قلبت كؤوس الشاي على مهل. رفعت لالة رُقية الغطاء وهي ترفع أنفها قليلا:

-لا لا، رائحة ما، قد تكون في الخضراوات، لكن لا يمكن، أؤكد أن القديد لم يُشَرّح ويملّح جيدًا، لا لا...

فتحت لالة فاطمة وعائشة فاهيهما كرد فعل استباقي، هل أنت متأكّدة؟ أشكّ في الطريقة العصرية المستعملة في أيامنا هذه، يستعملن الكزبرة والتوابل.

مَنْ تعَصْرن..؟

لم تنطق النسوة، وبقيت الكلمة معلّقة في أذهانهن، تعجب بعضهن، والأخريات غارت أعينهن في جحورهن، الكل أتى بالقديد، واختلط الصالح ربما بالطالح، تم إفراغ القدر وصبّ المرق، وتحلق الجميع حول المائدة في صمت، لالة فاطمة تمصّ الشاي مصًا له زئير، تسمع صرير أسنانهن، وإذا شربن تقرقع حلوقهن بالماء، الكل يشير بأصابع الاتهام إلى الآخر، وإلى الشيء واللاشيء.. الطاولة ساكنة، ولكنك تحسّ أنها تنطوي على سرّ عظيم. ولا أدري أيّهما أصوب، بقائي مع هذا الجيل أم ذهابي؟

تعب الكلام من الكلام

عبد الصمد الصغير

لَقَدْ تَعِبَ الْكَلامُ مِنَ الْكَلامِ
وَقَدْ عَجَزَ الرِّثاءُ عَنِ الْمَلامِ

فَما جَدْوى الْكَلامِ وَكُلُّ شَيْءٍ
يَراني فاقِداً أَيَّ احْتِرامِ

كَأَنّي مُخْطِئٌ لَمّا تَراني
وَفِيَّ تَجَمَّعَتْ لُغَةُ الْخِصامِ

فَكَيْفَ الصَّمْتُ يُخْمِدُ لي ضَميراً؟
يَرى قِطَعاً وَقَدْ سَقَطَتْ أَمامي

لَقَدْ وَلّى زَمانُ الناسِ حَقّا
وَصارَ الْأَمْرُ لِأَوْلادِ الْحَرامِ

وَقامَ الْهَبُّ في وَجْهِ الْمَرايا
يُريدُ بِنا الْحَياةَ بِلا احْتِرامِ

يُحِبُّونَ التَّشَفّي فيمَنْ يُعاني
بِحُجّةِ مَظْلَماتٍ وَانْتِقامِ

أَراهُمْ قَدْ نَسُوا ما صارَ فينا
وَقَدْ قالُوا: وَداعاً لِلسَّلامِ

كَأَنّي قَدْ يَقِنْتُ الْيَوْمَ جَهْلاً
تَوَزَّعَ بَيْنَنا وَقْتَ الْخِصامِ

لِماذا مِحْنَةٌ قَدْ فَرَّقَتْنا؟
عَلَيْها وَهْيَ مُمْسِكَةُ اللِّجامِ

فَتَقْطِفُ ذِرْوَةُ الْإِحْساسِ غِلًّا
قَديماً عِنْدَ داعِيَةِ السَّلامِ

لَقَدْ جَفَّتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ تَبْكي
وَقَدْ وَصَلَ الْأَنينُ إِلى الْعِظامِ

وَرِيقَ دَمي إِلى أَنْ ذُكَّ عَظْمي
إِلى أَنْ طارَ مِنْ بَيْنِ الْحُطامِ

رَميماً في الْأَديمِ، وَفي الْأَعالي
يَرى الْبَصَماتِ مِنْ يَوْمِ الْفِطامِ

وَحاضِرُنا عَنيدٌ، لا يُبالي
وَيَوْمُ غَدٍ، تَوَعَّدَ بِانْتِقامِ

إِذا سُبُلُ الْحَياةِ مُهَيَّآتٌ
يَفُورُدَمٌ تَهَيَّأَ لِلْغَرامِ

كَأَنّي ما عَبَرْتُ الْأَمْسَ يَوْماً
وَلا مِنْ دافِعٍ بي لِلْأَمامِ

وَشِعْري مُنْجِزٌ وَعْدَ الْقَوافي
أُرَصِّعُهُ عَقيقاً بِانْتِظامِ

يَقُولُ كَما تَفَتَّقَ مِنْ لِسانٍ
لِإِسْماعيلَ في بَدْءِ الْكَلامِ

فَغَطِّي ما اسْتَطَعْتَ دَليلَ شَرٍّ
بِسَعْيٍ حَيْثُ مَأْدَبَةُ اللِّئامِ

سَيُخْرِجُ وَصْفَةَ الْأَوْصافِ شِعْري
عِباراتٍ... كَبَدْرٍ في التَّمامِ

سَأَتْرُكُ سيرَةَ الْأَيّامِ تَرْوي
حَقيقَةَ مَنْ تَسَبَّبَ في السَّقامِ

وَما مِنْ دَمْعَةٍ وَقَفَتْ بِجَفْنٍ
وَلا شَغَفٌ، وَلا أَيُّ اهْتِمامِ

أَشِعْري! لا تُجَرِّعْني الْمَعاني
وَأَطْرِبْني بِهَزّاتِ الْمَقامِ

أُسَلِّمُ أَنَّ قافِيَتي عَناءٌ
لِأَضْيَعَ تائِها وَسَطَ الزِّحامِ

وَبي سِرُّ الْحَياةِ، وَمَنْ يُنادي
عَلى رَكْبٍ يَسيرُ عَلى الدَّوامِ

فَهَلْ أَمْشي وَهذا السَّيْرُ يُضْني
وَأَيْني مِنْ ثَباتي وَاعْتِصامي

وَهَلْ أَبْقى مَكاني حَيْثُ قَوْمي
تَمادَوْا في الْإِذايَةِ وَالْخِصامِ

أَرى الْغِرْبانَ تَمْشي الْهُوَيْنا
مُقَلَّدَةً لِمِشْيَةِ الْحَمامِ

تَطيرُ حَريصَةً كَيْ لا يَراها
مُدَرِّبُها، وَصَيّادٌ لِلنَّعامِ

أَيا صَحْبي لَقَدْ وَصَلَتْ إِلَيْنا
مُؤَجَّلَةٌ... لِعامٍ بَعْدَ عامِ

عَلى عَمْدٍ أَراكَ تُسيءُ فَهْمي
بِإِصْرارِ الْجَهالَةِ وَالْخِصامِ

لِماذا الْنّائِماتُ أَفَقْنَ ذُعْراً
بِصَوْتٍ مُنَبِّهٍ يُنْهي مَنامي

وَكَيْفَ لِنائِمٍ يَلْقاهُ يَوْمٌ؟
وَمَذْعوراً يَسْتَفيقُ مِنَ الْمَنامِ

وَكَيْفَ تُرى الطَّريقُ بِلا دَليلٍ
وَأَيْنَ الْبَيِّناتُ عَلى الْكَلامِ

وَلَمّا اسْتَيْأَسَ الْوَهْمُ افْتِراضاً
مَسَحْتَ الْعَلاماتِ يا ابْنَ الْحَرامِ

سَأَلْتُ الشِّعْرَ: أَيْنَكَ؟ لَمْ يُجِبْني
وَلَمْ أَعْثُرْ لَهُ غَيْرَ الْحُطامِ

عَلى قَطْعِ الْعُرى بَثّي وَحُزْني
وَكُلِّ النّافِهينَ، عَلى الْمَقامِ

عَلى ذاكَ الَّذي يَرْتَدُّ حَرْبٌ
عَلَيْهِ لَعْنَةٌ مِثْلَ الصَّريمِ

فَما جَدْوى رِثاءٍ في جُحودٍ
وَقَدْ سَكَتَ الْجَميعُ عَنِ الْحَرامِ

وَما مَعْنى الْحَديثِ انْشَقَّ يَنْهى
وَقَدْ تَعِبَ الْكَلامُ مِنَ الْكَلامِ

عمل للفنان البصري البرتغالي سوسانو كوريا

محمد مصطفى القباج
نبع من عطاء متدفق

أ.د نجاة المريني
أستاذ فخري بجامعة محمد الخامس / الرباط

تكريم الأستاذ محمد مصطفى القباج تعبير عمَّا نكنُّهُ جميعا من تقدير واعتزاز لرائد من رواد الحركة التنويرية في التأليف والتصنيف على مستويات عديدة ، وللتنويه بخصال خلقية يُحمد عليها وبأنشطةٍ علمية يُنَوَّهُ بها في جميع الأوساط وفي كل الأوقات .

للأستاذ مصطفى القباج مسارٌ مشرفٌ تعددتْ مشاربُ عطائِه وتنوعتْ مواردُ انشغالاته، راود القلمَ ليَمُجَّ سوادا في بياض فيتناول موضوعات متنوعةٍ عالجها بمعرفة وعلم ، وتقنية وضبطٍ ، فأتاحَ لنا ـ نحن القراءَ ـ أن نغْذيَ الفكرَ ونُنْعشه بما صنَّفه وحبَّرَه في الفكر والثقافة ، في التربية والتعليم ، في قضايا المسرح ودواليبه ، ،وفي غيرها من الموضوعات التي شغلتْه بيسر وهدوءٍ وأناة وسكون . أما المواضيعُ الفلسفيةُ التي كان يغوص فيها بمعرفة شمولية وأساليبَ منطقيَّة فذاتُ دلالات وأبعاد لها خصوصيَّتُها في كتاباته، ولذلك سأقتصرُ على الإشارة إلى مؤلفاته الفكرية والثقافية والمسرحية الآتية :

1 ـ فمن مؤلفاته في الفكر والثقافة على سبيل المثال:

- مقارباتٌ فكريةٌ وسياسيةٌ في الشأن العربي الراهن ؛
- حوارُ الثقافات وحقوق الإنسان في زمن العولمة؛
- مقارباتٌ في الحوار والمواطنة ومجتمع المعرفة ؛
- مشاغلُ فكر في زمن العولمة ؛ ـ عُصَارةُ فكر؛
- مبحثُ الحرية في الفكر العربي المعاصر وغيرُها من المؤلفات .

وأضيفُ إلى هذه المؤلفات إصدارَه لسلسلة: عمَّ يتحدثون ؟ في خمسة أجزاء ، وتتناول موضوعات مختلفةً ، منها ما سأحاول التطرقَ إليه وهو: شهاداتُهُ الرصينةُ عن أعلام الثقافة والفكر في المغرب ، ويمكنُ أن أضيف إلى هذه الأجزاء الخمسة ما كتبه عن محمد عزيز الحبابي : الفكر المتحرك ،وما كَتبه في عصارة فكَّر في واحد من محاورَه عن بعض الأعلام المغاربة في الفكر والفن .

عمَّ يتحدثون ؟ وأسبابُ اهتمامه بهذا النوع من الكتابة :

جاء في تقديم العدد الأول من « عمَّ يتحدثون ؟ « : « ممَّا حفزني على أنْ أضعَ هذه النصوصَ بين يدي القارئ أنَّ الاهتمامَ يتركزُ على صنف خاص من المفكرين والمبدعين ، في حين يُهْمَلُ الباحثون والمبدعون الذين يتناولون موضوعات مسكوتٍ عنها أو مُهَمَّشة على الرغم من أنها تكتسي أهميةً من حيث مضمونُها وأبعادُها « ج1/ 6، أو ما يمكن أنْ أسميه سياسةَ التهميش التي نعيشها من طرف جميع الأطراف،الرسمية كوزارة الثقافة أو المؤسسات الثقافية على اختلافها وما اكثرَهَا . وجاء في الجزء الثاني « أن هذه المؤلفات ـ أيْ عم يتحدثون ـ تتضمنُ من خلال محاورها شهادات في حق أعلام الفكر المغربي المعاصر، لها حضورٌ بارزٌ في عدِيد من الأصعدة المعرفية والثقافية والفنية تقديراً لها وتنويها بعطاءاتها « ج2 /6، وهنا لابدَّ من الإشارة إلى أنني أشترك مع الأستاذ القباج في هموم التعريف بالأعلام المغاربة خاصةً مَنْ كان لي بهم احْتكاكٌ مباشرٌ وعرفتُهم عن قرب ، إذ كانتْ لي نَفْسُ التهمُّمات والشهَادات عن بعض رجال الفكر والثقافة في مؤلفي: أعلامٌ في الذاكرة والوَجدان بأجزائه الأربعة خلال سنوات 2007 ، 2009 ، 2012 ، 2024.

2 ـ في التربية والتعليم

الأستاذُ القباجُ رجلُ تربية وتعليم بامتياز، مارس التعليمَ في مستويات عديدة؛ في المدرسة المغربية بسلا والرباطِ والقنيطرة ، في الجامعة المغربية: المدرسة العليا للأساتذة سابقا (كلية علوم التربية اليوم)، في المدرسة المولوية بالرباط، فهوَ ذو تجربة كبيرة في التعليم والتدريس ، وكفاءة عالية في عالم التربية والتعليم ، مَارسَ التدريس والتعليم بحبٍّ وعشق، لذلك نجح في مهمته التربوية، ومنْ إصداراته في الميدان:

- التربيةُ والثقافةُ في زمن العولمة ؛
- الطفلُ المغربيُّ وأساليبُ التنشئة الاجتماعية بين الحداثة والتقليد؛
- الأمية في المغرب: هلْ من علاج ؟

كما أنَّ له أبحاثا تربويةً في مؤلفات ومجلات بالاشتراك حولَ التربية والمجتمع منها : الطفلُ ووسائلُ الإعلام ، أيُّ تعليم ثانوي لمغرب الغد ؟، تأثيراتُ الصحافة على العملية التربوية ، التربيةُ على المواطنة والحوار وقبولِ الآخر في التعليم الثانوي، وغيْرها من المحاور التربوية التي لفتتْ نظرَهُ فأبدَعَ في طرح الأدواء والتوعية بخطورتها وطُرُق علاجها ، فكان بحق نعْمَ المنظرُ لما يسعى إليه المربي في تربية النشء أو غيره من فئاتَ الشباب في اطوار حَياتهم المختلفة ، نعَتَه الأستاذ نور الدين أفاية « بالأستاذ والمعلم « وأجد في هذا التوصيف « المعلم «دلالات عميقة وواضحة لما للمفردة من حضور في ذاكرة المتعلم . وأستحضرُ هنَا دلالةَ المعَلم في المفهوم الدارج وهو الذي يُفيدُك تقنّية العملَ بحِنْكة ورصانة وتدبير وحصافة .

3 ـ في المسرح وقضاياه ، ومن مؤلفاته

- من قضايا الإبداع المسرحي؛
- المسرحُ والفلسفةُ : بعض من تجليات صلات وثيقة .

إضافة إلى ما يُزَوّدُ به المجلات التربويةَ والملاحقَ الثقافية بدراسات وأبحاث تُعْنَى بالتربية والتعليم، وبذلك يُغني الساحةَ التربوية بآراء مربٍّ ذي تجربة رائدة في التربية والتعليم وكفاءةٍ عاليةٍ للإجابة عنَ الأسئلة الملغزة في الموضوع .

يقول الأستاذ عبد الرحمن بن زيدان عن مؤلف الأستاذ القباج « المسرحُ والفلسفة : بعضٌ من تجليات صلاتٍ وثيقة « : « إن علاقة المؤلفَ بالمسرح وبالدرس الفلسفي ليستْ طارئة على اهتمامه وهو يعيش سؤالَ كتاباته النقدية بتلقي العديد من التجارب المسرحية لأنه عاش تجربةَ مسرح الهواة بالمغرب ،وتعرَّفَ معهمْ على كل التيارات المسرحية الطليعية التي كانتْ تصنعُ المواقفَ الجريئة ...وظل من خلال هذه التجربة مشغولا بنوعية التفاعل بين حقلي المسرح والفلسفة، لأن خلفيَّتَهُ الفلسفية التي بناها بحكم تخصصه وتكوينه الجامعي كرَّستْ عندهُ البَدْءَ بالوقوف على قضايا وخصوصيات المعرفة بكل تشعباتها واشكالاتها الفلسفية التجريدية التجريدية « عمَّ يتحدثون ج4 /ص 416 .

واسمحوا لي الآن أن أتحدثَ باختصار عن مؤلفه الباذخ :عمّ يتحدثون ؟

في هذا المؤلف بأجزائه الخمسة يُطلُّ علينا الأستاذُ محمد مصطفى القباج كما عهدتُه ذلكمُ الباحثُ الأنيقَ لغةً وفكرا ،وأنْ يَعْرِضَ علينا في هذا المنجز القباجيِّ المتنوع التعرف إليه والاحتكاك بمدوَّناته باعتبارها زُبْدةَ مكنوناتِ فكره وهو يَبحثُ ويناقشُ ويحاضر ويصنفَ، واسْتَعَنْ هنا بعنوانِ اختارَهُ لواحد من كتبه « عُصَارة فكر» ، وأكيدٌ أنَّ مؤلفَه « عمَّ يتحدثون ؟» على تنوع موضوعاته وتعددها هو عصارةُ فكر؛ وكتوضيح فقد وردتْ في الأجزاء الأربعة من هذا المؤلف موضوعاتٌ متنوعة. وسأكتفي بما حبَّرَه قلمُه عن الأعلامَ والمفكرين الذين شغلَهُ أمرُهُم وأعْجبَ بهم وتحدثَ عنهم ، بطريقته الخاصة وحَسبَ ما استوْحاهُ من كتاباتهم ، إذ أجدُ لكل صنف من هذه الشهادةِ أو الكتابةِ نزوعاً حول تصورُه للشخصية المتحدث عنها.

اقتصَر الجزءُ الأول على محور واحد « نظراتٌ في فكر أعلام من المغرب المعاصر»، فتحدث عن شخصيات وازنة في الفكر المغربي بلغ عددُهم سبعا وذلك من خلال انشغالاتهم واهتماماتهم ،ومنهمْ علال الفاسي ومحمد المكي الناصري ومحمد عزيز الحَبابي وعبد الكريم غلاب ،وهو لم يكتف بشهادة كما هوَ معروف ،وإنما أتى بدراسات وافية ، فأمتع وأجاد وأوضح وَأفاد ، وأمتع وأبان ، كما تضمَّنَ ثلاثَ مرثيات لشخصيَّات لفتت انتباهَه وحظيَتْ بتقديره ؛وهم: قاسم الزهيري ومحمد القاسمي ، وسأكتفي بالحديث عن نموذجين ، علالِ الفاسي ومحمدٍ أبي طالب .

بالنسبة لعلال الفاسي اختار المؤلفُ لشهادته موضوعَ « مسألة الحرية في فكر وممارسات علال الفاسي « ؛وهي دراسة استوعبتْ ما كان للحرية في فكر الزعيم علال الفاسي من أدوار في تحريك فكره ومشاعره للدعوة إلى التحرر من مستعمر مستبد استرخص البلاد والعباد فأشعل فتيل العزة والإباء عند الزعيم ؛وترجم ذلك من خلال كتاباته في النقد الذاتي وكتاب الحرية (صدر بعد وفاته بأربع سنوات) أو من خلال مواقفه أو أشعاره التي أثثتْ فضاء هذه الدراسة المتميزة المحبوكة بخيوط المعرفة العميقة لما كان للزعيم من رؤى وآراء حللها المؤلف القباج بموضوعية ووضوح ،كما اختار نماذج من أشعار علال الفاسي في موضوع الحرية أقتطف منها بعض الأبيات (ج1/66):

جعلتُ حريتي رمزا أتيه به
فظل نجمُ ضميري جدَّ مُشتعل
...أُريد حريـة الآراء في وطني
وفي هواها وجدتُ الصَّاب كالعسل
..أريد للوطن المحبوب مرتبة
تقي بنيه ضروبَ الذُّل والوَهَل

أما بالنسبة للأستاذ محمد أبو طالب وقاسم الزهيري ومحمد القاسمي فجاءت شهادته في محور سماه « مرثيات» ،عنون مرثيتَه للأستاذ محمد أبي طالب بالعبارة الآتية : « الإنسانُ ذو الأبعاد الكثيرة «: شخصيةٌ فريدةٌ في حياته وعلاقاته ، تسكنُه ـ وهذا عشته أيضا ـ روحُ الوضوح في كل مراميه ، يقول الأستاذ القباج :» كان أحبَّ الناس إليه هم الأشخاصُ الذين لا يتسترون وراء المساحيق والأقنعة «، وهو الأستاذ الذي كانت « أستاذيته الإثارةُ ، وبذلك لم يكن يمارس مهنته من خلال مقرر أو صنف معرفي معيَّن ،كان العالمُ كله هو برنامَجَه التعليمي ينتقي منه ما يُجدي بلغة محدِّدة هي مسكنُ وجوده « ج1/ 195 ، وقد لمستُ ذلك عن قرب فلا يرضى بلغة هجينة ، يريدُ لغةً صافية سَليمةً خالية من الأخطاء ، كان يثور عندما يخطئ الطالبُ او غيرُه في تلويث لغته بالأخطاء وينتفضُ محتجاً ومستنكراً لذلك، كانتْ شهادةُ الأستاذ القباج تفي بما للرجل من أفضال على الجميع في عطائه ونصحه ، «فجوهرُ كينونته هو العطاءُ الخالصُ والوهْبُ المحْض».شهادةٌ مؤثرة ،ويظهر

أنني عزَفْتُ على نفس الوتر في رثائي للأستاذ أبي طالب حيث قلت :» أبو طالب نموذجُ الشخصية المغربية في عطائها وصفائها ،كان يمثل الخلقَ الإسلامي الرفيع في أعلى درجاته ، خبرَ الحياةَ وجرَّبَها ، وخبرَ الناسَ في طيبتهم وسَوءِ أعمالهم ، في مكرهم وشيطنة أحابيلهم ، يُشجِّعُ المحسنَ ويُرشِّدُ المسيء ويتجاوز عن أخطائه، كان رَجل التحدي وهو يُصارعُ المرض بإيمان صادق وعزيمة قوية « .اعلام في الذاكرة والوجدان 150/1 .

أمَّا الجزء الثاني من كتاب «عمَّ يتحدثون ؟ « فمن موضوعاته المختلفة باعتبارها فصولا فكانت كالآتي : رؤى ، الشخصية المغربية ، مجتمعُ المعرفة ، المناصفة بين الحقيقة والأوهام ، حوارات ،إلى غيرها من الموضوعات، وسيكون حديثي عن الفصل الذي إهتم فيه بالشهادات التي تناولتْ عشرَ شخصيات ، وأدار المؤلف حديثه عن كل شخصية من خلال موضوع يراه الأقربَ إلى المتحدَّث عنه ،وسأخُصُّ الحديثَ عن شخصيتَين : الأولى عن الأستاذ عَباس الجراري والثانية عن المبدع عبد الله شقرون ،وكان مُكرَّمُنا ذكيا في اختيار موضوع الشهادة بمن سيتحدث عنه ،فتحدَّث عن « العولمة من منظور عباس الجراري : مقارباتٌ ومواقف « ، وكانت الشهادةُ مُسْتَوْفيَة لما للرجل من حضور بهيٍّ في أكاديمية المملكة المغربية ، يقول القباج : « أكبرُ فيه موسوعيَّته وعُمْقَ فكره وحِكْمَته مُتجاوزا تخصُّصَه الضيقَ لمُعانقة الآفاق الرَّحْبَة لأصناف معرفية متنوعة ، لا يبقى حبيسَ تخصُّصه الأصلي للاهتمام بالقَضايا العامة باحثا وكاتبا وسياسيا وخطيبا ومجادلا وواعظا بأسلوب عربيٍّ متين مُتَناغم الأفكار « ج2 /108، ومن ثم سيتناول الأستاذُ القباجُ مَفْهُومَ العَوْلَمَة في فكر الأستاذ الجراري ، فنحنُ ملزمونَ في إطار النظام الدولي الجديد أن ننخرطَ في واقع العالم المعاصر ،ويستشهدُ برأي الأستاذ الجراري ومَفادُهُ :» لا اعتراض لنا على العولمة من حيث المبدإ ، لأنَّ الإسلامَ سبق إليها ،وهو دينٌ ينادي إلى العالمية ، لكن دون أن يتدخل في الهُوِيَّات ...هذا مع العلم بأنه لا تخفى بعضُ إيجابيات العولمة من حيثُ تَطويرُ التقنيات وتكنولوجيا المعرفة ، وكذا في الجانب الاقتصادي والتجاري والتسويقي مع العراقيل التي تحول دون صادرات الدول النامية « ج/2 122 .

موضوعٌ جدير بالوقوف عنده طويلا لكن لا يتسع الوقت لذلك .

الشخصية الثانية عَنْوَنَها بالآتي:» مع الأستاذ عبد الله شقرون في كتابه : «النساءُ ..والرجال»، فبعد المقدمة التمهيدية أي التوطئةِ للموضوع يحدثنا المؤلف عن شقرون « النموذج التربوي الذي وُفِّق في تكوينه بين الأصالة والمعاصرة ، بين معارف الأقدمين (لغةً عربيةً وفقها وحديثا) ومعارف المحدثين (لغةً أجنبيةً وعلوما وفنونا) ، نموذجُ المثقف الحق، تواضَعَ الله فرفعَه إلى أعلى مراتب التقدير والتبجيل، صَفَتْ سريرته فجازاه الله بالسمعة الطيبة والذكر الحسن « ج166/2 ، أما بيتُ القصيد فهو الجزءُ الثاني من الكتاب المشار إليه، « رتَّبَهُ المؤلف في ملفات ثمانية ، كل ملف مخصصٌ لجانب من الجوانب المتعلقة بتدبير شأن الجنسين ، أي ما يتميز به الذكرُ عن الأنثى ، وسأكتفي بالإشارة إلى ملفين اثنين ، الأول يتضمن تحليل الكتب الآتية : الحريمُ السياسي للباحثة فاطمة المرنيسي ،تحريرُ المرأة في عصر الرسالة للأستاذ عبد الحليم أبو شقة، كتابُ « نساء محمد « للأستاذة سنية قرَاعة، أحلامُ النساء لفاطمة المرنيسي «، الملفُ الثاني ويخصصه « لما تعالجُه الآداب ، سواءً بالشعر أو النثر ، وسواءٌ تعلق الأمرُ بعشق المرأة للرجل أو بعشق الرجل للمرأة ، ويتضمن مجموعةً من الكتب منها: كتابُ النساء في الأدب وهو تأليف جماعي ، أروعُ ما قيل في المرأة لإميل ناصف ، سوسيولوجيا الغزل العربي للطاهر لبيب ، كتابُ تشنيف الأسماع في أسماء الجمَاع وما يُلائمُهُ من مستلَذ السَّماع» للقَاضي الشاعر مولاي أحمَدَ بن المأمون البلغيثي « إلى غيرها من الكتب، ويرى الأستاذُ القباج في هذه الإطلالة على هذه المؤلفات « انه سيكتفي برَصد مرئيات شقرون وهو يتسلل بها بين سطور وفقرات لنتبيَّن من خلال ذلك مجمل المواقف الشقرونية واختياراتِه وانتماءاته المجتمعية والفكرية « ج178/2 .

وقد حَظيتُ في هذا الجزء بمقالين عن شخصين المتواضع عنون أولهما ب «نجاة المريني الباحثة الجادة ومكوِّنَة الأجيال « وثانيهما ب « التكريم المستحق « ، لذا فلا يسعني في هذا المنبر العلمي إلا أن اشكرَهُ على الاحتفاء بي وتكريمي ، جزاه الله خيرا .

أما الشهاداتُ الأخرى فتناول خلالها الشخصيات الآتية : عبد الهادي التازي ، محمد الكتاني، أحمد الطيب لعلج ،مَحمد الدريج ، عبد الواحد بن ياسر،محمد العلمي والي .

وقد سلك الأستاذُ القباج في المؤلفات الأخرى خاصة الجزأين الرابعَ والخامسَ نفسَ المنهج الذي اختطَّهُ منذ أن شرع في هذا المشروع كي لا تضيعَ دراساتُه ومقالاته سواءً التي شارك بها في ندوات أو محاضرات أوغيرها .وقد جاءت العناوينُ المقترحة للجزء الرابع من «عمَّ يتحدثون؟» من خلال فصول كالآتي: سيرةٌ ذاتية، عن أعلام الفكر، أبحاثٌ ورؤى ، قراءاتٌ ، وقد أحسنَ الأستاذ القباج صنعا عندما « نشر مسلسل حوار نشرتْهُ جريدةُ المساء ضِمنَ ركنٍ قارٍّ عنوانُه « كرسيُّ الاعتراف» في ثمان وسبعين حلقة 78 منْ إعداد الصَّحَفي رشيد عفيف عن سيرته الذاتية ومرئياته حولَ قضايا الساعة، وجعل لهذا المسلسل / الحوار عنوانًا هو « وَتلك الأيام «، وهو أول موضوعات هذا الجزء، وتجنبا لكل سوءِ تأويل، فإن المؤلفَ ينبِّهُ إلى أن «حرْصَهُ على توثيق حوارات ونصوص مبعثرة هنا

وهناك ليس من قبيل الأنانية أو الافتخار، فمنْ يعرفُني يُدْرِكُ بأني أبعدُ من ذلك طيلةَ حَياتي المَهنيَة والفكرية ، لم أسْعَ لنيل مَصلحة أو الحصول على منصب «ج4 /8 ،إنه قولٌ فصلٌ يؤكدُ واقعَ الحالِ كما نعرِف جميعا عن الأستاذ القباج ، خَصْلَة التواضع مَيْسَمُه وشيمَتُه كما عرفتُه وكما يعرفه غيري من الباحثين والكتاب وعامة الناس. أما عن فصل أعلام الفكر والثقافة باعتباره نصوصا عَن أعلامَ الفكر، فكان الحديثُ عن :عبد الله العروي من خلال تساؤل طرحه : هل ما زال لكتاب « الإيديولوجيات العربية المعاصرة من أثر»، أما عن الأعلام فكانت دراسته عن الجابري : فكانت عن المشروع الفكري لمحمد عابد الجابري : من مرحلته الجينيَة إلى اكتماله النظري « ،والشهادتان دراساتٌ ومناقشاتٌ ساهم بهما المؤلف في ندوتين علميتين بكلية آداب بنمسيك بالدار البيضاء.

أما ما يتعلق بشهادات في حق أعلام الفكر ، فكانت عن « عبد الوهاب التازي سعود : المربي النموجي والعالم المشارك « وكتب عن مسار ثريا جبران بطريقة مختلفة : عن الحركة المسرحية في الوسط الاجتماعي الذي نشأت فيه ، عن انتمائها الأسري عن التحاقها بالمسرح كموظفة إدارية، ومن ثم قيامها بأدوار ثانوية إلى أن التحقت بمسرح الصديقي وإعجابها بعبد الواحد عوزري الذي ستنشئ معه فرقة «مسرح اليوم «، محطات حياة ثريا جبران كما يقول المؤلف :» هذا النص / الخطاطة الذي استعرضتُ فيه باختصار شديد مسارات ثريا ، ينتظر من الباحثين الأكاديمين ومؤرخي المسرح ونقاده القيامَ بحفريات لاستقصاء تفاصيل سيرة فنانتنا باعتبارها نمَوذجا يُحتذى في زمان نَدَرتْ فيه النماذجُ الأصيلة « ج4/ 315 .

وكتب عن حسن المنيعي مقالا مختصرا بطلب من معلمة المغرب ، تحدث عن مسار حياته تلميذا وطالبا وأستاذا جامعيا ومؤلفا مشيرا إليها ، مهتما بسنوات إصدارها ، معتبرا بأنه «بهذا المنجز العلمي عُدَّ من المساهمين المؤسسين للحداثة الثقافية في المغرب، كما يُسجَّل له حضوره القوي في مجال العمل الجمعوي «. وكانت شهادته في تأبين الأستاذ محمد وقيدي مؤثرة ، أما خير الدين حسيب فتحدث عن مشروعه المؤجل بعد وفته .

وتناول الجزء الخامس الفصول الآتية : أبحاثٌ ورؤى، إبستيمولوجيا كارل بوبر، توطئاتُ كتب، أعلامٌ ، قراءاتٌ ، حواراتٌ ،وباعتبار موضوعي عن الشهادات فسأتحدث عن الفصل الذي عنونه بأعلام ، (شهادات) تناول في هذا الفصل الأساتذة : محمد المصباحي ،عبد السلام بنعبد العالي، الطاهر واعزيز، محمد سبيلا ، مصطفى الزباخ ، مولاي أحمد العلوي ، حَظيتْ هذه الشهاداتُ بدراسات عما يشغل العَلَمَ المتحدثَ عنه ،فخصَّ الأستاذُ المصباحي بدراسة وافية عنوانها كالآتي : انعطافة محمد المصباحي نحو التوليف بينَ عقلانية ابن رشد وعرفانية ابن عربي « ،وبذلك ركَّز حديثه على اهتمامات المصباحي في دراساته الفلسفية.

وتأتي شهادتُه عن الأستاذ عبد السلام بنعبد العالي باعتباره قارئا ومتفلسفا وكاتبا خارج النسق التقليدي ،وافية لما اقترحَه عنوانا لعرضه سواء يوم عشرَته له في رحلة علمية إلى باريس أو في شهادته عنه يوم تكريمه بأصيلا ، ومن ثمَّ يمكن القول بأن « التفلسف كما يمارسه بنعبد العالي هوَ حصيلة قراءاته من أجل الانخراط في الكونية أوالعالمية ، بمعنى أن كل سؤالٍ فلسفي لا مَفرَّ له اليومَ أنْ يَجدَ نفسَهُ منخرطا في الكونية، ، وحينئذ لنْ يعودَ هناك مجال لافتراض مفهوم مُطلق عن الخصوصية ، ولا إمكانية للحديث عن الأصالة إلا في إطارهذه الكونية... إنَّ اقْتحَامَ الكونية اليومَ قَدَرٌ تاريخيٌّ وليس اختيارا إرَاديا»ج226/5.

ويمكن أنْ أضيف في إطار الشهادات الواردة في «عمَّ يتحدثون ؟» ما ورد في كتاب آخَرَ لهُ «عُصَارة فكر» عن التيارات الإيديولوجية في العالم العَربي لمحمد علال الفاسي ، عن خطوط التَّمَاس بين الإبداع والبحث العلمي في كتابات عبد الكبير الخطيبي ،عن ثوَابت ومتغيرات فكر عبد الهادي بوطالب،عن مسرح أحمد الطيب لعلَج : مرجعيَاتٌ وخصوصيات إلى غيرها من الموضوعات التي أثارتْ فكرَ الأستاذ القباج ، فكان لها نصيبٌ من دراساته ومناقشاته وتعليقاته.

أما الأستاذ المَعلَّمُ محمدُ عزيز الحبابي فكانتْ شهادتُه كتابا عنوانُه : محمدُ عزيز الحبابي : الفكرُ المتحرك ،(من الشخصانية الواقعية إلى الشخصانية الإسلامية إلى الغدية) ، كتابٌ غنيٌّ بتحليلاته ورُؤاه حول الشخصانية الحبابية ،مع اختيارات أخْرى ارتأى المؤلف إدراجَها لتكون شاهدا علىَ التعددية في كتابات الحبابي ؛ فكتبَ عن ديوانه : بؤسٌ وضياء، مقتطفاتٌ من كتبه المرجعيَّة ، كما نشر في قسم آخرَ من هذا الكتاب « نصوصا مغمورة للأستاذ الحبابي نُشرَ بعضُها في إصدارات أكاديمية المملكة المغربية أو في مجلتها أو محاضراتها وغيرها منَ المجلات ، وبصدور هذا الكتاب تبدو مَلامحُ الوفاء عند القباج جَليَّة وإضحة للأستاذ والشيخ محمد عزيز الحبابي ، فبورك جهدُك ووفاؤك لمن أولاك رعاية وتقديرا كمَا تذكرُ وأنت تتحدث عن علاقتك به .

***

وأخيرا ، فإنَّ عَقْدَ هذا اللقاء التكريمي للأستاذ والصديق محمد مصطفى القباج هو تعبيرٌ عمَّا للمكرم من عطاء علميٍّ وفير ومؤلفات متعددة بصعبٌ تناوُلها ببساطة ، إذ لا بدَّ من الاجتهاد للاقتراب منها وفهم مُسْتَغْلَقَهَا خاصة ما يتعلق بالأبحاث والدراسات الفلسفية ، إصداراتٌ بهيَة تُغري بالقراءة والتتبع ،وكذلك باعتباره قُدْوةً لمسار كل باحث يسعىَ إلى النجاح فيترسَّمَ خطاه ، وتأخذَ الأجيال المستقبليةُ عن هذا المسار نموذجا يُحتذى للإسهام في ارتقاء البلاد بخطىً ثابتة في معارج النمو والنماء.

وهنا يجب التنويهُ بأخلاق المحتفى به أستاذنا وصديقنا محمد مصطفى القباج ،رجلٌ خلوقٌ، تُشرقُ أساريرُه محبة وتقديرا ، يُقْبِلُ على مُخاطبه بتواضع وحسن استقبال في أيِّ ظرف كان، يُحْسِنُ الاستماع إلى الآخر ، وهذه خَصْلَةٌ قلَّما نجدها عند مُخاطبينا ، خصلةٌ لها ما لها من حضور وتألق في المجتمعات الراقية ، وقبْلَهَا ما ورد من أحاديث عن سلوك الحَبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم مع الناس على اختلاف مستوياتهم ومشاربهم ، وعن هذا التوصيف يقول الشاعر زهير بن أبي سلمى:

تراه إذا ما جئته متهللا كأنَّكَ تُعْطيه الذي أنتَ سائلُه

القباجُ رجلٌ ذو أنفة وكبرياء، وعزَّة وإباء ،وإخلاص ووفاء، وبمثل هذا الخُلق النَّبهيِّ يحْظى بتَقدير الجميع وَمحبتهم على اختلاف مستوَياتهم في مغربنا أو خارجه في العديد من الدول الصديقة ، وكما يقال :» أعزُّ الناس منْ أخلص في الودِّ والتقدير».

يقول عنه الأستاذ عبد اللطيف بنعبد الجليل:» يتميز القباجُ بخصوصية شخصيته ، يأخذُك بإنسانيته المعهودة وسلوكاته الحميدة وقُدْراته الفكَرية المتنوعة ... أخلاقٌ عَطرَةٌ ، ومواقفُ صادقة، ومحبةٌ موصولة «، وعن علاقاته العامة يقول الأستاذ حسن اوريد « كان القباجُ ـ وأضيفُ وما يزال إلى اليوم ـ حَلَقَةَ وصل بين اليمين واليسار في زمن قلَّ أنْ يلتَقيَا ، كما كان صلةَ وصلٍ بين الأدباء والفلاسفة ،وبين المتفرنسينَ والمعربين « .

ويُنوِّهُ الأستاذ مصطفى الزباخ بصداقته قائلا:» إنَّ العنايةَ الإلهية أهدتْه صداقةَ الأستاذ القباج ، صداقةً صادقةً كأن العَطاءُ جوهرَهَا ، والمواطنَةُ لُحْمَتَهَا ،ومحبةُ الآخر جَوَازَهَا، وأنَّها وحَّدتْ بين اسْمَيْنا وجمعتْنا في رحلة الحياة عبرَ ثلاث محطات ،أعتبرُها من الحصون المنيرة للهُوِيَّة الحَضارية والذاتيةَ والثقافيَّة « .

إن عقْدَ مثْلَ هذه اللقاءات ليُعَدُّ بابا من أبواب التذكير بما للمَكرَم / الباحث والكَاتب من أفضال في تحمُّل مسؤوليَة الكتابة والتحبير، والاعتراف بقدراته المتنوعة على مَلء الثقوب والفراغات في مجتمعٍ يسعى إلى النهوض بثقافته وبناء حضارته بما يخطه قلَمُه وتترْجمُهُ أبحاثه ودراساتُه ورُؤاهُ ،عسى أن تتكررَ هذه اللقاءاتُ والجلساتُ فنَسْتَفيدَ ونُفيدَ، ونحقق آمالا واعدة بخطىً ثابتة موفقةٍ بإذن الله.

شاركت بهذا العرض في تكريم الأستاذ محمد مصطفى القباج في الندوة العلمية التي أقامها المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية تحت عنوان : « الدكتور محمد مصطفى القباج ومساره الفكري والتربوي «بفندق الرباط مساء يوم السبت 16 نونبر 2024 م ، 13 جمادى الأولى 1446 هـ .

جمالية الكتابة الدرامية التاريخية

في «طبول من الصحراء» لمحمد فراح*

أحمد بلخيري

معروف تاريخيا، أن مسرح الهواة في المغرب كان بمثابة «معهد مسرحي» يتلقى فيه عشاق المسرح أبجديات الثقافة المسرحية. ففيه كان يتم اكتشاف عوالمه السحرية، وآفاقه الفكرية غير المحدودة، واستجابته إلى ما يمور في العقل والوجدان من تطلع للحرية وغيرها من القيم الإنسانية، وتمرد فني على واقع هو واقع العقود الأخيرة من القرن العشرين في المغرب. واقع يمكن رسم صورة ذهنية عنه اليوم بفضل دراسات ومقالات، وكذلك بفضل نصوص أدبية، سير ذاتية ومذكرات. وكذلك بفضل نصوص مسرحية مغربية منشورة تنتمي إلى تلك الحقبة التي وُصفت، خصوصا سبعينيات وثمانينيات القرن المذكور، ب»سنوات الجمر والرصاص». ومعروف كذلك المنعطف الذي عرفه هذا المسرح في سبعينيات ذلك القرن. منعطف لم يكن منفصلا عن الاتجاهات والمدارس المسرحية في العالم، وكذلك عن الاتجاهات والمدارس الفكرية فيه أيضا.

كان محمد فراح فاعلا أساسيا في هذا المسرح طيلة سنوات. ولعل ما يمكن أن يعطي صورة، ولو أولية، عن تفاعل المبدع المسرحي محمد فراح مع ما سبق ذكره، اختياره شخصية «الحجاج»، مع ما ترمز إليه هذه الشخصية، منطلقا لكتابة نصه الدرامي «الحجاج يسبح» الذي قُدِّم من لدن جمعية «الشهاب المسرحية»، وهي إحدى الجمعيات المسرحية بمدينة الدار البيضاء، في الموسم المسرحي 1981/1980.

في هذا الخضم المتلاطم الأفكار والتصورات والأساليب الفنية المسرحية في دور الشباب وخارجها، وبفضل القراءة والتكوين الجامعي أيضا، كانت ثقافة المبدع والباحث والناقد المسرحي الدكتور محمد فراح المسرحية، وثقافته بصفة عام، تتسع رويدا رويدا إلى أن استوت على عودها التي هي عليه الآن، فقدمت للثقافة المغربية مبدعا وباحثا مسرحيا أكاديميا، أغنت إبداعاته وأبحاثه المسرحية، وتغني اليوم كذلك، الثقافة المسرحية المغربية، والثقافة بشكل عام، التي هي الثروة الحقيقية التي ستبقى للأجيال القادمة، والتي ستُحفظ في سجلات التاريخ.

فمن حيث هو مبدع مسرحي، لا تخطئ الحاسة النقدية لقارئ إبداعه المسرحي أنه لم يكن إبداعا من أجل الإبداع، ولكنه إبداع مسرحي مسبوك فنيا من أجل التنوير. ولهذا جمع بين الحسنيين: الإبداع المسرحي والتنوير الفكري، وبين الإمتاع والفائدة. إبداع مسرحي غير منفصل عن القضايا الوطنية، والقومية، والإنسانية.

ومن حيث هو باحث وناقد مسرحي، فمنذ عقود وهو ينشر مقالات ودراسات لا تقتصر موضوعاتها على دراسة المسرح المغربي وقراءة، بالمعنى النقدي، بعض نصوصه المسرحية، بل شمل اهتمامه البحثي والنقدي المسرح العربي بصفة عامة وإشكالاته النقدية. ولعل خير دليل على ذلك هو كتابه النقدي «الخطاب المسرحي العربي وإشكالية القراءة نحو مقاربة جمالية لتلقي النص الدرامي» (2018). ففي هذا الكتاب، كما يتبين من عنوانه ومتنه أيضا، دراسات نقدية لنصوص درامية عربية مختلفة من حيث بنياتها الدرامية، ومنها نص درامي للمبدع المسرحي المسكيني الصغير «العقرب والميزان».

ومفهوم القراءة، عنده، مؤطر بتصور منهجي منفتح على التطورات المنهجية العالمية في وقتنا الراهن. لهذا توجد في تصديره للكتاب المذكور مفاهيم من قبيل «المقاربات السيميولوجية"، و"الأبعاد الهيرمينوطيقية"، و"المقاربة الجمالية"، و"التلقي"، و"القراءة الخطية"، و"قراءة عمودية"...

ورغم اقتناعه بضرورة التسلح بمنهج معين لقراءة النص المسرحي، فإنه مقتنع أيضا بأنه «من الصعب على القراءة الواحدة مهما اتسعت آفاقها أن تستوعب الظاهرة الإبداعية والأسئلة التي تطرحها، كما أنه من الصعب أيضا على مقاربة منهجية واحدة أن تقوم بهذا الاستيعاب مهما كانت درجة دقتها وشموليتها» (ص 66). وهذه، لعمري، رؤية منهجية منفتحة غير منغلقة تقر بنسبية القراءة، وهذا عين العقل. إضافة إلى هذا، فهو ينتقي النصوص المسرحية الجامعة بين الإبداع الجمالي والطرح الفكري التي يجعلها موضوعا للقراءة. من هنا يمكن القول إن هناك خيطا ناظما بين نقده المسرحي وإبداعه المسرحي.

لقد أعلن الناقد والباحث الدكتور محمد فراح في كتابه المشار إليه أنه يسعى إلى»بناء مشروع قرائي يستند في تصوره العام على بعض المفاهيم الواردة في نظرية جمالية التلقي» (ص 11). هذا على صعيد النقد المسرحي؛ أما على صعيد الإبداع المسرحي فلنصوصه المسرحية، بصفة عامة، ارتباط وثيق بالقضايا الإنسانية، والقومية، والوطنية. في إطار هذه الأخيرة يندرج هذا النص المسرحي «طبول من الصحراء». تتجلى هذه الوطنية من خلال شخصية يوسف بن تاشفين (400-500 هج 1009-1106م) بوصف هذه الشخصية من شخصيات هذا النص المسرحي، والملفوظات الدرامية الخاصة بها التي تكشف عن الدور البطولي الذي قامت به هذه الشخصية الدرامية التاريخية من أجل الأندلس. هذا، ومما ينبغي ذكره، في هذا السياق، هو قضية المعتمد بن عباد، الملك والشاعر، أو الملك الشاعر، الذي يوجد قبره بأغمات ضواحي مَدينة مراكش. قدم النص المسرحي هذه القضية من منظور وطني.

يُستشف مما سبق ذكره اعتماد الكتابة الدرامية في «طبول من الصحراء» للكاتب المسرحي محمد فراح على التاريخ، لكن إزاء التاريخ كان التخييل الدرامي. لهذا تميزت البنية الدرامية بهذا المزج بين التاريخ من جهة، والتخييل الدرامي من جهة أخرى. فشخصيات يوسف بن تاشفين، والمعتمد بن عباد، والقاضي ابن رشد (الجد: 450 هج-520هج 1058م 1126-هج)، وليس ابن رشد الفيلسوف، وزينب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين، واعتماد زوجة المعتمد بن عباد، والفونسو، وأسماء ملوك الطوائف المذكورة في النص، والفقيه ابن الطلاع هي شخصيات تاريخية. أما التخييل الدرامي فيتجلى من خلال:

-1في النافذة الأولى، وقد قسم النص المسرحي إلى نوافذ عددها سبع، كان الحوار الدرامي بين شخصية يوسف بن تاشفين وشخصية المعتمد بن عباد بعد "إحياء" هذا الأخير من قبره.

-2في المعجم اللغوي الذي يرتبط بالراهن وليس بالتاريخ

مثل "الباناشي"، "سياسة المافيا"، الدولار وغيره من العملات المذكورة في النص، "اليمين واليسار»، «كاميرات التلفزة»، «قناة عرب الأندلس»، «مارلين»، هوليود» إلخ.

3 -في تركيب النص الدرامي نفسه وبنيته الدرامية. وللنص ارتباط أيضا، فضلا عن الوطنية المغربية، بالقومية العربية. ولعل أبرز مثال على هذه الأخيرة في النص المسرحي هو اجتماع ملوك الطوائف في «مؤتمر عربي»، حسب النص، في اشبيلية التي كانت تحت سلطة المعتمد بن عباد، واختلافهم حول شكل مائدة الاجتماع، ولونها، وأرجلها. لم يقل النص مؤتمر ملوك الطوائف، بل ورد فيه بالنص «المؤتمر العربي». يمكن النظر إلى هذا المؤتمر وتأويله من منظور الحاضر وليس الماضي. وبهذا يكون التاريخ إطارا جماليا لتقديم رؤية عن الحاضر وليس عن الماضي.

هذا، ولا بد من النظر إلى عنوان النص ذاته: «طبول من الصحراء». للطبول وظائف مختلفة منها، حسب النص، أنه «يُنقر عليه في الأعراس» (ص54) علامة على الفرح؛ ومنها كذلك وظيفتها في الحرب، من هنا كانت عبارة «طبول الحرب». هذه الوظيفة الأخيرة هي المقصودة في العنوان. وكونها آتية إلى الأندلس من الصحراء، أي من المغرب، فهذا يعني أنها طبول حرب من الصحراء من أجل الأندلس. حرب قادها يوسف بن تاشفين، في «المرة الثالثة» تتمثل في معركة الزلاقة (479 هج1086-م)، نصرة للهلال، رمز الإسلام، ولتوحيد كلمة العرب. وحّد يوسف بن تاشفين المغرب والأندلس جغرافيا، وعلى صعيد «الكلمة» أيضا، أي على صعيد السياسة، ضد الأجنبي غير المسلم الذي ترمز له كلمة الصليب في النص الدرامي. ندلس

واللافت للانتباه هو أن العنوان جملة إسمية، لذا فهو غير مقيد بزمن مّا. ولأن «مـنْ» الموجودة في العنوان تفيد، من الناحية اللغوية، الابتداء ، فقد كان هذا الأخير، انطلاقا من العنوان والأحداث الدرامية نفسها، من الصحراء أي من المغرب. يبدو أن اختيار كلمة الصحراء عوض المغرب في العنوان يعود إلى أصل ميلاد يوسف بن تاشفين الذي كان في الصحراء المغربية وليس إلى المكان الذي انطلقت منه تلك الشخصية بالضبط نحو الأندلس. فحينما ذهبت هذه الشخصية إلى الأندلس لم تكن في الصحراء بل كان في عاصمة الدولة المرابطية مدينة مراكش. لذا، فإن اختيار كلمة الصحراء بدل المغرب يمكن تفسيره بكونه ينطوي على رسالة ضمنية.

أما الغاية في النص الدرامي برمته فهي تلك النصرة وذلك التوحيد. ويبدو أنه هذه هي رسالة **Message** النص الدرامي الموجّهة للحاضر وليس للماضي. رسالة مفادها أن المغرب يعمل من أجل نصرة الهلال، وقد تكررت هذه المفردة مرات عديدة في النص الدرامي، ومن أجل توحيد العرب، توحيد كلمتهم. وإذا كانت الوحدة عند يوسف بن تاشفين جغرافية وسياسية في نطاق الغرب الإسلامي، فإنه يمكن القول إن الوحدة المقصودة في الحاضر هي وحدة العرب على صعيد الكلمة أي على صعيد السياسة، لا على صعيد الجغرافيا، ضد الأجنبي أي غير العربي. سبيل التوصل إلى الرسالة المتعلقة بالماضي تستخلص هو تحليل الحوار الدرامي، أما سبيل التوصل إلى الرسالة المتعلقة بالحاضر فهو التأويل.

فضلا عن تلك الرسالة، توجد رسالة أخرى تخص الحاضر أيضا. رسالة اجتماعية تتعلق باستشراء آفات اجتماعية مثل التزوير، والسرقة، والرشوة. هذه الرسالة الاجتماعية جسدتها شخصية الدرويش التي توجد في معجمها اللغوي في الحوار الدرامي كلمات مشتقة من تلك الكلمات. هذا، وقد كتب النص بلغة عربية فصيحة سليمة.

كتب هذا الموضوع بمناسبة توقيع النص المسرحي «طبول من الصحراء» لمحمد قراح في المهرجان الوطني للمسرح الذي انعقد بتطوان من 22 إلى 29 نونبر 2024.

نظراة

الذكاء الاصطناعي في مرآة التأمل الفلسفي

د. حسن لغدش

إذا ما سلمنا بأن الفلسفة تعتني بحقل الأفكار وبناء المفاهيم مقارنة بمجال الظواهر الملموسة، فهي ترتكن إلى منهجية صارمة في التعاطي مع أي اعتبار مفاهيمي، بل وتتعداه لتسطير غايات تفوق كل تساؤل فلسفي. وعليه، يمكن للفلسفة باعتبارها مغامرة متاهة في امتداد الوجود، فإن لها الحق في التفكير في قضايا، وإن بدت بديهة، فهي مكملة للحقول المعتادة للفلسفة كالأنطولوجيا والابستيمولوجيا والإيثيقا. بناء على ذلك، يمكن للفلسفة أن تسائل ما يصطلح عليه اليوم بالذكاء الاصطناعي وبالتالي الخوض في مقتضياته، ولو من باب الفضول الابستيمولوجيي.

أول طرح فلسفي يتعلق بأصل الذكاء الاصطناعي، كيف ومتى بدأ الحديث عن الذكاء الاصطناعي؟ إثارة هذه المسألة في بعدها التاريخي، يمكننا من تجاوز سرديات الأهداف أحادية الجانب التي تقتضيها، وسائل التواصل الاجتماعي عبر شبكاتها المعلوماتية والتي تجعل من استعمالات الذكاء الاصطناعي انتصارا طوباويا، بل مؤشرا على انهيار حضارة الإنسان. ولعل هذا ما أفرزته العلاقات الاستبدالية للتقنية وللفكر، هذا الأخير بدأ يتحرر تدريجيا من التصورات المهيمنة والغامضة.

إن السباق المحموم نحو توظيف الذكاء الاصطناعي في ميادين شتى أصبح يثير مخاوف من قبيل عدم التحكم في برمجته، وبالمقابل، يذكي حماسنا وإعجابنا بإمكانياته المدهشة. ولقد ساهم الإشهار باستراتيجياته الافتتانية في تعزيز هذه الرؤية من غير أن ندرك عواقبها.

فالحديث عن الإيا **IA** كاستعمال مصطلحي ولغوي عام يساهم بدوره في إذكاء الغموض الذي يلف الذكاء الاصطناعي . وقد تعددت السجالات النظرية حول هذا الكائن الافتراضي، ويبقى المصطلح متضمن لما هو اصطناعي، وبالتالي فما هو اصطناعي نظريا قابل للمساءلة.

في العديد من المناسبات أكد مدير مؤسسة الأطلس **Atlas** للترجمة الأدبية يورن كامبلينج **(JÖRN CAMBRELENG)** على الفرق بين اللغة الذاتية النابعة من أحاسيس المتكلم وانفعالاته الوجدانية، وبين مكتوب أو منطوق مجرد من أية مسؤولية. وعليه، تبقى لغة الآلي الاصطناعي الذكي، مجرد ترابطات لغوية تخضع للمعالجة وفق خوارزميات. فهي لغة محاكاة، وليست ملكة متأصلة في الذكاء الاصطناعي، كما هو شأن لغة الإنسان .

فإذا كان «الذكاء» في الأصل هو الفهم وخلق الترابطات بين معطيات مختلفة للعبور نحو حقيقة الأشياء، فإن استعمالات الذكاء الاصطناعي أصبحت في حقيقة الأمر واقعا وتحديا للعقل البشري. وقد عزز هذا الاستعمال الجروح السالفة التي تلقاها الإنسان، بدءا بتجاوز نظرية غاليلي، ونظرية داروين وخلاصات علم النفس الذي وضع الأنا أمام قصورها في التحكم، لينضاف الجرح النرجسي الرابع الذي خلفه الذكاء الاصطناعي بمنافسة الإنسان في توليد اللغة.

ما عمق هذا الجرح النرجسي للإنسان من منظور علم السلوكيات الخاص بالحيوانات، والذي أثبت بالتجربة أن بعض السلوكات ليست حكرا على الإنسان وحده. فالحيوان يتوفر بدوره على الشعور ويتميز كالإنسان بالإيثار، وهذا سلوك النمل تجاه جثث الأموات. يبقى إذن مجال المنافسة واردا بين سلوكات آدمية. لكن تبقى هذه الملاحظة جزئية إذا ما وضعنا الذكاء البشري في مرآة التأمل الفلسفي.

لا يقتصر الذكاء البشري فقط على معالجة المعطيات، بل يتعداه وذلك عبر التفكير في منظومة القيم التي تشرعنه، وبالتالي التأمل في معنى الحياة والوجود. وعليه، لا يمكن للذكاء الاصطناعي إلى حدود اليوم أن يؤرشف مختلف الأجوبة المرتبطة بدلالات الوجود أو أن ينجز كاتالوجا مصنفا للعديد من الأسئلة والأجوبة المرتبطة بهذه المسألة، بل أكثر من ذلك لا يستطيع أن يسائلها. ليس بمقدوره كذلك التردد بين جوابين، وبالتالي لا يشكك، أي ليس له القدرة على التفلسف. نحن كبشر، بإمكاننا التردد بين الأجوبة المتعلقة مثلا بمعنى الحياة، وغالبا ما يكون السؤال في حد ذاته مبعثا لارتجاجات جسدية وعاطفية، عكس ما هو معمول به في أدبيات الذكاء الاصطناعي. كما أن الذكاء الاصطناعي ليس بمقدوره الوقوع في شباك الحب، وبالتالي لا يمكنه أن يعيش صدمة جمالية وروحية. ليس بمقدوره كذلك أن يقيِّم الجمال ما دام لم يستطع استيعابه. إنه ذكاء يوظف المعطيات والكهرباء والمادة والإحصائيات والاحتمالات، مما يجعله حبيس شرارات و ليس منتج ماهيات، بخلاف الذكاء البشري الذي يعد مزيجا من لحظات الارتياب والسخرية والتردد واللبس والسؤال اللايقيني لمعنى الوجود، وهذه المادة هي التي نسميها الروح.

بناء المكان والوعي الشعري في تجربة محمد الأشعري

أحمد زنيبر

يحفل المتن الشعري المغربي الحديث بأعمال شعرية خصّها أصحابها لفضاء مدينة الرباط، الذي تحول على أيدي شعرائه إلى أفق ثقافي وحضاري، بالنظر لما يحمله في طيّاته من معالمَ وصور وأحداث تؤرخ لها وتحفظ ذاكرتها من التّلَف والنّسيان. فمن الشعراء من تغنى بالمدينة من خلال وصف أجوائها ومظاهرها الطبيعية، ومنهم من قاربها من خلال عرض ظواهرها وقضاياها الاجتماعية، ومنهم من تمثلها بوعيٍ نقدي حيث انخرطت الذات الشاعرة في بعض أسرارها وتفاصيلها.

ويعد محمد الأشعري من بين أهم الشعراء الذين تمثلوا مدينة الرباط، حين قدم إليها، من مدينة زرهون، محملا بزاد ثقافي وبيئي وسياسي، فارتبط وجوده الإنساني بأمكنتها المتعددة وانعكست صورُها في شعره، وصارت، بفعل الاحْتكاك اليوميّ بالأحداث السياسية والاجتماعية، جُزءا من كتابته الإبداعية. كما أنه من الأسماء التي زاوجت بين الكتابة والسّياسة والإعلام، وخطت لنفسها مسارًا فكريّا وثقافيًا جديرًا بالقراءة والاهتمام. باشرَ الكتابة الشعرية في سبعينيات القرن الماضي، وأبانَ عن شاعريّة ونباهةٍ مُبكّرة. يقول عنه الناقد نجيب العوفي، ذات شهادة: «ولا يُذكر اسم الأشعري إلا مقترناً بمسار شعري حافل وباسل، يَربو على أربعة عُقود من الزمان. فقد كانتْ إطلالتُه الإبداعية الأولى مع إطلالة السبعينيّات من القرن الفارط. ومُنذئذ وهو يكتب الشعر دأبًا، لا تصرفه عنه صوارف ولا يخلف معه موعدًا. وهذا في حدّ ذاته دليلٌ على تمكّن الشعر منهُ وتصفية رُؤيَته للعالم.» وبذكر هذه الفترة وما بعدها، نكون أمام لحظة تاريخية لها كبيرُ الأثر في توجيه مسار الشاعر، في علاقته بالمكان/ الرباط. فكيف بنى محمد الأشعري صورة الرباط في ذاكرته ومتخيّله الشعري؟ وكيف جسّد طبيعة العلاقة التي ربطته بالمكان، قبولا أو نفورًا؟ ثم ما العناصرُ التي استند إليها في إبراز ذلك؟ وبالتالي، كيف اشتغلت حواسُّه أثناء العرض والوصف؟ وكيف تمّ نقل المدينة/ المكان، عبر اللغة والمجاز، من مجرّد المعاينة والنّظر إلى التّأمُّل والمُناجاة؟..

يمكن حصر بعض أمكنة الرباط التي توقّف عندها الأشعري، منذ إطلالاته الإبداعية الأولى، وتم استحضارهما عن طريق الاستعادة والتّذكر، في مكانين بارزين يوثّقان لمرحلة من مراحل تاريخ المغرب السّياسي، هما السجن المحلي والحي الجامعي. مرحلة أبانت عن وعيٍ سياسي بقضايا الوطن، فكان الانخراط ضرورة، كما أبانتْ عن وعي بوظيفة الشعْر في الدّفاع عن المظلومين والمقهورين من فئات الشعب العريضة. ولعلها الوظيفة التي اكتفت، في البداية، بالتعبير عن الأحداث المجتمعية الساخنة، قبل أن تنشغل، لاحقًا، بمُكوّنات القصيدة، في بُعديها الشعري والجمالي.

نصادف في ديوان (عينان بسعة الحلم) الصادر سنة 1981، لمحمد الشعري قصيدة بعنوان «خيمة الإسمنت» تتضمن وصفًا دقيقًا لتفاصيل السجن المركزي (لعلو)، وتأريخًا ضمنيًا لأشكال العنف الذي ميّز فضاءه الضيّق، وتلويحًا صريحًا بجدوى طلب الحُريّة والدفاع عن القيم الإنسانية النبيلة. يقول في مطلعها:

كطائر الرّخ حطّتْ
مخلب في البحر ومخلب في المقبرة
وبين المخلبين طارتْ قبّرة
دارت دورتين وانطفأتْ
واشتعلتْ مصابيحُ الحُراس
يا وجهها المنسيّ في أعتابِ العتمَة..

تبعا للمقطع أعلاه، يتموقع المكان جغرافيا بين امتدادِ البحر وانْسداد المقبرة. وبين الموقعين موتٌ رمزيّ يتبلوَر عبْر وعي قوامُه اللّغة والمعرفة الشعريّة. فالشاعر ارتأى تشبيهَ السجنِ بالطائر العمْلاق (الرّخ)، لكبر حجْمه وقوّته الهائلة، من حيث إن مواصفات هذا الكائن الأسطوري، سطوة وجبروتا وشراسة، قد تتقاطع مع بعض مواصفات السجن المرهبة.

في هذا «المكان» أيضا، بمواصفاته المتعددة وبتاريخه المنكتب في شرايين المعتقلين والمحبوسين، تلقّى الشاعر أقوى ضَرْبة مسّتْ كيانه وكينونته، حيث اعتقل رفقة أصدقائه في النّضال والمُعتقد من مقرّ النقابة بالرباط وحكم عليه بسَنة نافذة، على إثر الأحداث والاحتجاجات التي رافقت الإضراب العام ليوم 20 يونيو 1981 بمدينة الدار البيضاء الكبرى. وقد ألمح الشاعر محمد الأشعري إلى ذلك في نهاية قصيدة «الدار البيضاء 1981» بما صاحبها من توتّرات وصخب وشغب. وهي اللحظة التي أبانت عن ردّة فعل مخزنية قوية سريعة، تمثلت في حمْلة اعتقال مسّت بعض القِيادات وبعض الحَرَكيّين. يقول الأشعري:

أقفرَ الدربُ... وحسِبْنا الدقائقَ تلْو الدقائق
انتبَهْنا لملامحنا
وقرأنا وراءَ ابتسام التّحدي اعترافًا برُعب الحقيقة
ثم تشكل موكبُنا الفردُ واحدًا واحدًا
كما يعبُر الياسَمين إلى هدْأة الليلِ
جاهزٌ قرارُهمْ
وجاهزٌ رصاصُهمْ
ونافذٌ قرارُنا:
لنْ تَمُرّ المهْزلة.

هُنا، قَدّم الشاعر، عبر وسيط اللغة، صورةً مُظلمة ومُشرقة في آن، عن ذلك الدّرْب المقْفر، الذي جمع رفاق النضال، وهم يشقون طريقهم نحو الحرية. ولعل تكرار كلمة «الدقائق» تبرز تلك القسوة التي مورست في حق هؤلاء. غير أنّ الشاعرَ ورفاقه، بعدما انتبهوا إلى ملامحهم، أعلنوا تحديهم للواقع المتردّي، وأصروا على موقفهم النّضالي حيث الرغبة في تحقيق الوحدة والتضامن.

واستنادًا إلى هذا الوعي الشعري بطبيعة الحدَث، في صلتَه بالمكان، وظّف الشاعر صورة أخرى تمثلت في تشبيهِ تلاحُم المتظاهرين بعُبور الياسمين إلى هدأة الليلِ، بما يعكس طبيعة الصّمود والنضال. فالشاعر لم يتوانَ في ترسيخ فكرة المقاومة والتضحية في سبيل الكرامة والحرية، فإذا كان الرّصاصُ جاهزًا؛ فإنّ قرار الشعب جاهزٌ أيضا.

كلّ ذلك و«المكان» شاهدٌ على ما يجري من مآتمَ وخسارات. كل ذلك والذاتُ الشاعرة تعي حضورها التاريخي، وتُسجّل بمرارة عَراءَ المكان وشقاءَ المرحلة. فثمة حرمانٌ مطلق وضيقٌ وانغلاق. وثمّة عنفٌ مضاعفٌ ضدّ الإنسانية، فلا مهْرَب ولا انفلات. لذلك كان السجن «فضاء من بين الفضاءات المعادية التي تعلن دوما عن حرب ضروس ضد قاطنها، من خلال عتمتها وبرودتها وضيق مساحتها». وحين يعلو الصمتُ، في غفلة من عنف التاريخ، ينمو الإسْمنت عاليا ليحجب ضوء الحقيقة.

هي صور وأخرى تكتسي بلاغتها من تلك الحقول المعجمية التي وظفها الشاعر من صميم اللغة والمتخيل الشعري، حيث التضاد بيت المواجهة والخوف والقوة والضعف والرفض والخنوع، وبين اليأس والأمل والحزن والفرح والصمت والصوت. يقول في مقاطع من ذات القصيدة:

يتداخلُ الإسمنْتُ عبْر دوائرِ الدّخان
ينْمو الدّرْج كالثّعْبان
دائرةٌ ويَشتبك الجِدار بلَوْنه..
تتفتّتُ الأشْياءُ
حتّى أرْوعُ اللحَظات ،أصدَقُ اللحَظات في الماضي
يُداهمها ارْتجاجٌ كالصّدى
يا وجْهها المَنحوتَ من ضجر الصباحات الطويلة
يا وجهها المغروسَ في سفر القوافل
في اغتصاب الياسمين..

يتضمّنُ، هذا الشاهد، توظيفًا شفيفا لرموز وتشبيهات تحيل إلى عمق فلسفي وإنساني معًا، حيث الصراع والتوتر. ومن ثمة، ركز الشاعر على رصد أنواع من المفارقات والثنائيات من قبيل: الثبات (الإسمنت وصلابته) واللاثبات (الدخان ودوائره)، أو من قبيل: الصعود (الدرج) والخطر (الثعبان). غير أن تناسل اللحظات في عين المكان، بتعبير الشاعر، كانت مدعاة إلى التأمل وفتح كوّات لتبرعم الأشياء في امتداداتها المتعددة. ولا شك أن توالي الأفعال المضارعة (ينمو، يشتبك، تتناسل، تفتح، تتفتت، يداهمها) دليلُ إصرار الذات الشاعرة على الصمود والمواجهة، بالرغم من كل الإحباطات والإخفاقات المتوالية (ارتجاج، ضجر، اغتصاب). ومن ثمة، الشعور بالاختناق والاضطراب الذي يعقبه بحث عن منفذ للخلاص وحرصٌ على إيجاد معنى للوجود.

ولأنّ ثمنَ الحرية باهظ، تتناسى الذات الشاعرة مواجعها كي تمنح لنفسها فرصةً للرقص وفسحة للانتشاء برائحة البحر وحرائق الذكرى. وهي مساحة، لا شك، تشغلها اللغة الشعرية بمرجعياتها المختلفة، مثلما تشغلها تأويلات الشاعر المجازية للأحداث، بعيدًا عن النقل التاريخي المباشر لها. يقول في نهاية القصيدة:

إنّ السجْن لَغْمٌ دائمٌ وتكَسُّرٌ كالموت
لكنّ انْشطاري فجأة
واكتشافي للتعدّد والتّفرّد والتّوحُّد والتّحَزُّؤ
وامْتلائي بالشموس المشرَعات لغبْطة الإشراق
يغمُرُني بشيء مُطلَق كالحبّ
أو كاللحْظة الأولى لإشراق الولادة.

يحضر السّجنُ، هنا، باعتباره رمزًا للغم دائم يحيل إلى الألم والحرمان، لذلكَ بقدر ما حرص الشاعر على عرض هذا «المكان» في بعده المادي، بقدر ما حرص علَى بعده الرمزي أيضا، حيث قلقُ الذات وقيدُها الآني. ولعل شعرية المقطع المتضمنة في كمّ التشبيهات، تعكس عُمقَ التّفاعُل بين الشاعر وتجربَة «المكان».

هكذا، لم يكنْ غريبا أن نجد في رصد الأشعري لتجربة المكان، ترسيخا لوعي شعريٍّ أدرك أهميّة الكتابة عن المعنى الكامن في التفاصيل والجزئيات. ذلك أن الالتفاف حول المكان، بأبعاده المختلفة، له ما يبرره. فقد واصل الشاعر الكتابة، عبرهُما، من أجل تأكيد ارتباطه بالمحيط وبالآخر. غيْر أنّ الكتابة عن السجن لم تنحصرْ وظيفتُها التعبيرية في تأكيد الوعي البصَري للمكان فحسب؛ وإنما ترسيخا للإحساس العميق بالمكان الحضري، عبر تشكيل اللغة وتوظيف الإيقاع وتنويع الصور والخيال.

أما عن (الحيّ الجامعي)، باعتباره جزءًا من فضاء المدينة أيضا، فقد تمظهرتْ بعضُ معالمه، في قصيدة تتقاطَعُ مع قصيدة الشاعر حسن نجمي بعنوان: (ثكنة إسماعيل). وقد وضَع لها محمد الأشعري عنوانا يختزل بعدا مكانيا، كما يحيل إلى لحظة من تاريخه الهارب وهويته المفقودة، هو: (غرفة الطلبة)، بما يتيحه هذا العنوان من إمكانية التسريد الشعري، من خلال دفع الذات إلى الغوص بعيدًا في أعماقها وما تختزنه من تداعيات مرتبطة بالمكان، وحشةً وفراغا وفرحًا وأملا. يقول الأشعري في مقطع يتوسل فيه بالذاكرة:

كان في غُرفتي رجُلان:
في الجدار المشقق يحلم لِينين بالوَطن القُرْمزي
وبيني وبين السّتارة وجْه جيفارا بلحيَته المشعثة

احتفَلْنا بأعيادِنا كلّها
واقْتَسمْنا غرفَة السّطح
ومنْحَة صاحبنا الفيلسوف
ولم نتَشاجرْ طوال السّنة.

يبدو، في هذا المقطع القصير، تركيز على الذات الشاعرة في ارتباطها بتفاصيل «المكان». كما أن هناك إشارات قوية إلى فضاء الانتماء الحزبي والسياسي، حيث انتشارُ المدّ الاشتراكي الماركسي، والنضال الإنساني ضدّ الظلم، استنادًا إلى بعض رموزه وأسمائه. وما تخصيص الحديث عن هذه الغُرفة (شعْرًا) سوى نموذج لغُرف مشابهة أو مناقضة توجد بالحيّ الجامعي تستضمر عنْفَ اللحظة. فثمة عائلات سياسية مختلفة، والحذر على أشده من وشاية الخصوم وعنف المتطرفين. وكلما تأزم الوضع، كشطط المخبرين ومنع الأناشيد وحظر التجول، وما دون ذلك مَن قراراتٍ أمنية، استلزم الأمر مزيدًا من الحيطَة والحذَر.

يتضمن المقطع أيضا إشارة إلى التعايش بين الذات وما عرض له من أشخاص وأشياء ورموز (الجدار، الستارة، السطح، لينين، جيفارا، صاحبنا الفيلسوف، الحلم، الأعياد..). وهو تعايش ظل مرتبطا بوظيفة المكان (الغرفة)؛ غير أن هذه الوظيفة في النصّ ليست «وظيفة تعبيرية فقط يطرح الشاعر من خلالها انفعالاته وعواطفه، بل أيضا للمكان وظيفة معرفية حيث يتم تأسيس بناء معرفي في مجال إيهامي، إذ يجمع بين وعي محتمل وواقع مفترض، يتشكل بينهما عالم متخيل لا يقوم على التصوير الهندسي فحسب؛ بل أيضا على بنية متكاملة في المجال المعرفي والتشكيلي».

لذلك، لم يكن الحديثُ عن «غرفة الطلبة» من باب الوصف التقريري أو المجاني؛ بل تأكيدًا على طبيعَة المرحلة المشبعة بالأحداث، حيث الحلمُ والهُويّةُ رغبتان تظلان بعيدتا المنال، جعلت الشاعرَ يُنتج أسئلةً كثيرةً تعكسُ، هي الأخرى، قلقًا وجوديا يدعو الآخر إلى التأمل وَإعمال النظر. يقول الشاعر في نهاية القصيدة:

ما العمل؟
سُرقت حجلي وخَوابي القصائد أحْذيَة الغُرباء
ما العمل؟
سُيّج الحلمُ في قفَصٍ من كَلام
ما العمل؟
لوْ يعود الفتى للزّمان المشَقّق
ما زال في الوقت مُتّسع لاخْتمار الرّماد
ما زال قلبي يُكسر رجْفته بيْنَ كأسَين
ويوقِد شهوتَه في الجماد.

يرسمُ الشاعر محمد الأشعري، في نهاية القصيدة، ملامحَ الصراع النفسي والقلق الوجوديّ الذي استشعره، فانبرى بملء الجُرح إلى نقل تجربته الذاتية، ومن خلالها نقل تجربة الجماعة أيضا، في قربها من الأحْداث وصلتها بالمكان. لذلك، حين اشتدت به الحيْرة وسُرقت منه الأحلام، كبُرَ السؤال: ما العمل؟ ثم ارتد صداه في الأركان.

هنا، كان استدعاء أساليب بلاغية مثل أسلوب التمني مثلا، مُجسّدًا في كلمة: (لَوْ) حيث الرغبةُ في العودة إلى الزمن المشقّق، إذ ما زال هناك ما يسمح بإنعاش القلب ومواصلة الحياة. ولعلّها إحالة ضمنية إلى طائر الفينيق وما تحمله صورته في الذاكرة والأسطورة من نهوض وتجدد.

هكذا يحضر المكان/ المدينة، في تجربة الأشعري الشعرية، مدفوعا إلى التعبير والبوح عما يجري. إنه مكان تعدّى جانبه الإطار إلى جانبه الرمزي المتخيل. وتبعا لذلك، تحضر «أمكنة» الرباط، في علاقتها بتلك المرحلة، في صورة مُتوتّرة ومُهْتزّة أحيانا، تلقي بظلالها على ذاكرة موشومة بعنف التاريخ.

أخيرا، لم يكن الشاعر محمد الأشعري، وهو يلتَفّ حول مدينة الرباط، مجرّدَ جسَد في مدينة؛ وإنما حالةٍ إنسانية تفاعلت بتنوّع الأمكنة، وانفعَلتْ بتلوّن ما يقَعُ فيها منَ أحداثٍ، تجعَل الفصْلَ بين الممارسة السّياسيّة والممارسة الإبداعية أمْرًا متعذرًا.

إحالة: مختصر الدراسة التي قدمت خلال ندوة خيمة الإبداع تكريما للشاعر والروائي محمد الأشعري، في إطار الدورة 45 من موسم أصيلة الثقافي الدولي، يوم الأربعاء 30 أكتوبر 2024.

محمد اعزيز

تنبني رواية «هذا الرطيب» لمحمد مباركي في تشييد عالمها الحكائي على استثمار المعرفة التاريخية ، فالروائي يسائل التاريخ العربي الإسلامي ليعيد إثارة مجموعة من القضايا والإشكالات التي يمكن إدراجها ضمن التاريخ المغيب أو المنسي ، تبعا لذلك فالروائي يبحر إلى الفترة الأندلسية منقبا في ثناياها ، ومعيدا تشكيل ما حصله من معلومات في قالب تخييلي ، يروم من خلاله كشف اللثام عن إحدى أهم مآزق التاريخ الإنساني بصفة عامة والتاريخ العربي الإسلامي بصفة خاصة والأمر يتعلق ها هنا بمأزق العبودية؛ فالكاتب انشغل في روايته بشكل أساس بظاهرة الاسترقاق من ثمة سلط الضوء على فئة العبيد أو الرقيق ، مصورا مصائرهم الحياتية في بلاد الأندلس باعتبار هذه الأخيرة محطة زمنية وحضارية لها خصوصيتها الجغرافية والتاريخية والثقافية بل والإنسانية.

تسريد العبودية في الرواية المغربية

الجزء الثاني

«هذا الرطيب» لمحمد مباركي نموذجا

3 - الاسترقاق إمعان في التنكيل

يأخذ التنكيل بالعبيد في رواية «هذا الرطيب» أبعادا شتى وملامح مختلفة، إذ إن السيد أو المالك أو النخاس شكلوا على مدار الرواية مصدرا للتعذيب والاضطهاد إلا في ما ندر من الحالات الاستثنائية، ولعل أبرز نموذج وقعت عليه مختلف أصناف العذاب والويلات يظل (مهجة) بالنظر إلى المساحة النصية التي تشغلها سيرة هذه الأمة بكونها الذات النصية الأساس التي يقود السارد حولها دفة الحكي، ولإبراز سيرة العذاب التي طبعت مسار حياة هذه الفتاة، ندرج المقطع الذي يكثف أطوار المعاناة على مستوى النص ككل «لم تنقطع دموع «مهجة» ذلك المساء ولم تنم الليل كله تذكرت الطفلة ليزا التي تسكن داخلها، أعادت قراءة رسالة أمها عدة مرات على ضوء شمعة بكت هي الأخرى لبكاء المرأة، بين القراءة والقراءة كان فصل من فصول حياة «مهجة» يمر أمام عينيها بأدق تفاصيله، تذكرت ذلك اليوم المشؤوم الذي باعتها فيه أمها سيلينا الغجرية بطلب منها، وخروجها من منزل والديها بقرية الصيادين من بلاد الخزر العنيد، تذكرت السنوات التي قضتها بدار النخاس اليهودي الذي رباها ثم صدرها على ظهر سفينة إلى الأندلس الرهيب ، تذكرت دار سيدها الداعر «شعلان ابن زهرة الباهلية ... تذكرت زواجها من الإمام العظيم أبي الفضل زيان ... تذكرت كيف سباها القراصنة الملاعين وذهبوا بها وبصديقتها إلى حجم جزيرتهم»18.

يبرز هذا المشهد المعاناة التي يلقاها العبد أو الرقيق في مختلف أطوار الاسترقاق، وهو استرقاق ينطلق من لحظة الولوج إلى هذا العالم الأسود المغلق بالمآسي والكرب، ولوجا يتخذ أشكالا محددة يمكن استنباطها من سير العبيد المبثوثة في عالم الرواية، على النحو الآتي:

أ- البيع: ويكمن هذا النمط من الاسترقاق في مجموعة من النماذج الموجودة في الرواية، يأتي على رأسها (مهجة) التي باعتها أمها قهرا بالنظر إلى الفقر الذي سلط رماحه على هذه الأسرة المسيحية البسيطة بقرية الصيادين ببلاد الخزر، إلى جانب مهجة يمكن أن نشير إلى ذات نصية أخرى تم الزج بها في عالم الاسترقاق قسرا وقهرا عن طريق البيع الأسري والأمر يتعلق هنا بكارلا التي فقدت والديها وأصبحت اليتيمة تعيش في كنف أخيها المدمن على الخمر ومعاشرة البغايا، كان يجبرها على الخروج إلى العمل أو التسول لتأتيه بالمال، وحين عجزت

جرها من يديها إلى دار أحد النخاسين، سألته في الطريق:

- إلى أين أنت ذاهب بي يا أخي؟

رد عليها «إلى الخلاص من هاته الحياة التي أتعبتك فيها كثيرا يا كارلا يا أختي»، عند دخولها دار النخاس وقفت في بهوها الواسع، ألقت نظرة متفحصة على الوجوه الصغيرة»19.

وفق ما سلف يمكن الخلوص بالقول إن العامل الاجتماعي كان حاسما في تفشي ظاهرة الاسترقاق بالنظر للظرفية التاريخية آنذاك إلا أن ذلك لا يرفع المسؤولية عن الأسر على اعتبار هذا التفريط بفلذة الكبد ابتغاء ثمن زهيد، ولعل هذا ما يعكسه غضب (صام) والد مهجة الذي كان مغيبا بالسجن، ففوجئ بصدمة بيع البنت البكر أثناء غيابه، مع استحضار الندم الشديد الذي لحق الأم جراء توالي السنين وازدياد الحنين للبنت مهجة.

إن استحضار «محمد مباركي» لكل هذه المعطيات يعكس إلماما كبيرا بالشروط التاريخية للاسترقاق بل بجغرافيته أيضا، وهذا ما نلمحه في بعض التفاصيل المتعلقة بسير القوافل وطرقها ومساراتها، مما جعل بناء العوالم المتخيلة لسيرة العبيد مكتملة سواء على مستوى تقديم المعاناة أم على مستوى تقديم المعطيات الكفيلة ببناء الخلفية الثقافية والاقتصادية لظاهرة الاسترقاق في التاريخ الإنساني، هذه الظاهرة التي ترعرعت ونمت وتطورت بفعل عوامل اخرى إلى جانب البيع الأسري.

ب- الخطف: يشكل طريقة ثانية للاسترقاق وذلك من خلال زبانية النخاسين المنتشرين في بقاع الأرض من كافة الديانات والأعراف، تتجلى مهمتهم في مد النخاسين بالبضاعة البشرية والاستثمار فيها، وتعد الأمة (عبلة) خير نموذج لمن امتدت إليهم أيدي الذئاب المترصدة لسلبهم الحرية، يقول الراوي في سيرة هذه الأمة «كانت هذه الأمة السوداء خوافة تخاف من ظلها إذا مشت وحدها ليلا، تملكها الخوف منذ اختطافها صغيرة قرب كوخ والديها بقريتهم المعزولة وسط الأدغال الافريقية، أطبقت عليها يد حديدية وكممت فمها الصغير وجرت بها معصبة العينين إلى مخبئ مظلم ... سمعت بالمكان المترب نشيج صغيرات ... عاشت الصغيرة في الظلام الدامس مدة لم تستطع تحديدها»20.

يعكس المقطع فداحة الاسترقاق في إجرامه حين تلبسه بالاختطاف، إذ يغدو هذا الأخير آلية من آليات الإدماج في عالم الاسترقاق، به تتعزز العبودية كشبح تترصد الضحايا للمس بحريتهم، وبذلك فالاختطاف هنا يعد اختطافا جسديا ومعنويا، تختطف الذات في حضورها الفيزيقي وتختطف بمعيتها الحرية بوصفها وجودا معنويا، ومن ثمة تنسحق الذات المخطوفة جسديا راهنا ومستقبلا، وتنسحق معها الحرية الإنسانية أبديا ووجوديا، وهذا الانسحاق يبدو أكثر فظاعة حين نكتشف الآلية الثالثة التي يقتات عليها الاسترقاق باعتبارها آلية موغلة في التوحش واللاإنسانية وهي ما سميناها بآلية التوليد القسري أو في صناعة العبد.

ج - التوليد القسري أو في صناعة العبد: يمكن اعتبار هذه الآلية بمثابة الركن الأساس في إدامة عمر العبودية في التاريخ الإنساني، كما أنها الأنكى والأقسى والأكثر فظاعة، وستظل شاهدة على فظاعة امتهان الإنسان لأخيه الإنسان مهما حاول المؤرخون تغييب هذه الفضيحة الإنسانية، فالنخاس بخسته كان يعمد إلى استغلال العبيد والإماء في دار نخاسته لتكثير نسل العبيد، ليدر عليه ذلك عددا كبيرا من العبيد. وبذلك فالوفرة في العدد وفرة في المال بالضرورة، وفي خسة هذا السلوك يحدثنا الروائي عن ممارسات النخاس الذي «كان ينادي على العبد والأمة وحين يقفان أمامه يقول لهما ضاحكا بخبث: «إني قد زوجتكما» ثم يعود بعد أيام ويقول لهما: «إني طلقتكما لم يكن الواحد من رقيقه يستطيع أن يسأله سؤالا يمكن أن يسأله أي مجنون «على أي شريعة تزوج وتطلق هؤلاء الرقيق؟ كان سيجيب «على شريعة هاته الدار»21.

إنها شريعة العار التي أباحت امتهان الإنسان والحط من كرامته بتحويله إلى آلة لصناعة العبيد في انحدار مشين لآدمية الفرد، حيث دفعت به إلى النيل من إنسانية الإنسان ومسخه بهذه الصورة المهينة، إهانة تتضاعف مرارتها بالنسبة للطفل (أدهم) في علاقته بأمه إذ «لم يكن يعرف أباه كان كل الذكور في دار النخاس آباءه، هذا ما كانت أمه تقوله دائما خافضة عينيها من حياء»22.

إن هذا الإذلال اللامحدود للإنسان لا يمكن أن يصدر إلا عن حقارة لا نهائية، حقارة تصل إلى الإمعان في الإهانة حين يصبح الإنسان الذي تحت سطوة النخاس مجرد حيوان ولود، لا تتعزز أهميته إلا بالقدرة على الإنجاب الوفير، وهذا ما يصوره هذا المقطع من الرواية عن هذا النوع من النخاسين حيث يقول الراوي: «أول ما كان يتفحصه هذا النخاس من الرقيق طوال الأيور وعرض الفروج، إن كانت صالحة للإنجاب أم غير صالحة لا مكان للرقيق العاقر في منزله، العقر يورث الفقر في عقيدته يفرح فرحا عظيما بالأمة التي تلد التوأم، ود لو كل إمائه تلد أكثر من توأم»23.

إن هذه العقيدة الجشعة المؤسسة على تدمير الذات الإنسانية بازدرائها إلى هذا الحد، لا يعكس إلا بشاعة التاريخ الإنساني في إحدى محطاته التاريخية، بشاعة يصورها الروائي في مشهد صادم عن حياة هؤلاء العبيد لدى هذا الصنف من النخاسين المتلذذين بعذابات الآخرين، غير آبهين لكرامتهم وذلك بحشر كل العبيد في «غرفة مشتركة حين يتم إطفاء السروج يبدأ «الحفل»، يركب كل عبد مطيته، فتتعالى التأوهات والصراخ ولا تهدأ إلا مع الهزيل الأخير من الليل»24.

لعل هذا الاستغلال البشع للإنسان بتحويله عن هويته الآدمية وحشره في الصيغة البهيمية ما دفع بالروائي «محمد مباركي» إلى جعل نهاية هذه الفئة من النخاسين الخسيسين فظيعة بحجم الفظاعة التي ارتكبوها في حق الإنسان، ومن ثمة يورد الكاتب في روايته عن أحد هؤلاء أنه «دفن بعد الظهر، فظهرت بعض أطراف جثته فوق القبر بعد العصر، عاد حفار القبور إلى حفر قبره وإعادة جثته، لكن الأرض كانت تلفظها كل مرة، مل تكرار العملية، فتركها عارية حتى تعفنت وأكلت منها الطيور»25.

نهاية مأساوية يختارها الروائي بعناية، دلالة على استنكار فداحة ما تقترفه الأيدي العابثة بإنسانية الإنسان والهادفة إلى امتهان كرامته، إنه موقف مناهض للاسترقاق، فالعمل الروائي ها هنا ينحاز بقوة إلى تعرية جثة من سولت له نفسه هذا السلوك المشين، وبهذا تتضاعف وظيفة التعرية وتغدو غايتها مزدوجة، الأولى تتجلى في الفعل الكتابي عن المأساة بصفة عامة، والثانية في الانخراط في رسم مآلات درامية للمتسببين فيها وذلك باقتيادهم إلى مصير مفجع مستحق.

وبذلك تتجه الرواية إلى تمجيد قيمة الحرية باعتبارها من أسمى القيم التي يحق للفرد أن يتمتع بها، وهذا يبدو واضحا في ثنايا الرواية، إذ إن القارئ سيستنتج انتصارا مكشوفا للرواية المدروسة لهذه الفئة، تمت ترجمته على مستوى الخطاب والموقف عبر الانحياز النصي للذوات المكتوية بلظى العبودية.

لائحة المصادر والمراجع:

أ-مصدر الدراسة:

- محمد مباركي، هذا الرطيب، مكتبة سلمى الثقافية، تطوان، المغرب، الطبعة الأولى 2018.

ب- المراجع:

- جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة بيروت، الطبعة الأولى 2007.
- فرنسوا دوس، التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد،ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة الطبعة الاولى، 2009.
- يمنى العيد، الرواية العربية، المتخيل وبنيته الفنية، دار الفارابي بيروت، الطبعة الأولى 2011 .
- محمد القاضي، الرواية والتاريخ، دراسات في تخييل المرجعي، دار المعرفة للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2008.
- فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2004.

الهوامش:

18 - محمد مباركي، هذا الرطيب، م.س، ص: 112.
19 - محمد مباركي، هذا الرطيب، م.س، ص: 155.
20 - محمد مباركي، هذا الرطيب، م.س، ص: 376.
21 - محمد مباركي، هذا الرطيب، م.س، ص: 387.
22 - محمد مباركي، هذا الرطيب، م.س، ص: 387.
23 - محمد مباركي، هذا الرطيب، م.س، ص: 387.
24 - محمد مباركي، هذا الرطيب، م.س، ص: 435.
25 - محمد مباركي، هذا الرطيب، م.س، ص: 387.

3 كتّاب حول مائدة العشاء

8 مارس 1987

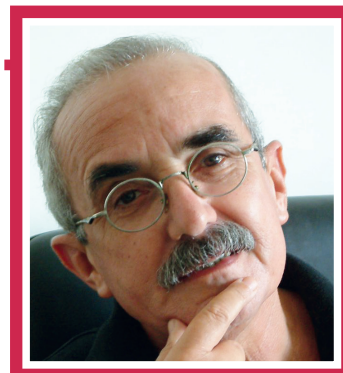

إبراهيم الخطيب

ذهبت لحضور مأدبة عشاء في فيلا محمد برادة (شارع 16 نوفمبر بالرباط) حوالي الساعة الثامنة وربع. ركنت سيارتي الـ R4 البيضاء بجانب الرصيف. وقبل أن أضغط على زر الجرس، بدا لي، من نافذة الصالون المواجهة لباب الفيلا، عبد الهادي وهو يخلع سترته ويقدمها إلى إدمون عمران المالح، فأدركت أنني لم أتأخر عن الموعد. إثر ذلك ظهر خوان غويتيصولو واقفا وهو يخلع سترته بدوره فيما كان يتحدث إلى زوجة هذا الأخير. جاء برادة وفتح الباب، فأعطيته قنينة نبيذ ليضيفها إلى «زاده». عندما ولجت الصالون بمعيته قدمني إلى إدمون وزوجته اللذين لم يسبق لي التعرف عليهما، فتحدث إلي إدمون بدون كلفة، وبلهجة دارجة سلسة يغلب عليها التلفظ الفاسي رغم أصولها الصويرية. حييت خوان وعبد الهادي، الذي لاحظت، منذ لمحته من النافذة، أنه قد أرسل في عثنونه لحية، كثة، سوداء.

سألت خوان عن مراكش سؤال مجاملة، فقال بأنها رائعة، وأن الطقس جميل في هذه الأيام من شهر مارس. ثم روى حكاية فتاة وفتى مراكشيين كانا يمارسان الحب تحت منصة، وقف عليها مغنون وعازفون، نصبت، بمناسبة عيد العرش، في ساحة جامع الفنا.

محمد برادة

عقب ذلك انتقل الحديث إلى مقال نُشر بصحيفة «لوموند»، في الملحق الخاص بالكتب الذي يصدر يوم الجمعة، عن صدور ترجمة كتاب لأخي خوان، لويس Luis، إلى الفرنسية. عبّر خوان عن امتعاضه من شراسة عنوان المقال («حرب أهلية في عائلة غويتيصولو ...؟»)، ثم انتقد النقاد والصحفيين الفرنسيين بحدة قائلا إن النقد، في فرنسا، يوجد حاليا في حالة مزرية، وهو ما وافقه عليه إدمون بدون تردد، ربما بسبب الصمت الذي تُقابَل به رواياته التي تصدر هناك عن دور نشر صغيرة. احتسينا جرعات نبيذ أنا وعبد الهادي، وشرب خوان ماءً معدنيا كعادته، أما إدمون فامتنع عن الشرب قائلا إنه سيفعل ذلك عند تناول العشاء. لاحظت أن إدمون، بين آونة وأخرى، كان يذهب إلى المطبخ لمساعدة «الكبيرة» التي لم نرها ولم نسمع صوتها قط طيلة السهرة. وكنت علمت أنه مولع بذلك، ويجيد الطهي على طريقة اليهود المغاربة.

كان حضور زوجة إدمون، رغم هدوئها اللافت، بارزا هنا حيث شاركتنا الحديث بتعليقات مختصرة حول ولع زوجها بالطبخ: ملامحها تذكّر بالفرنسيات الأصيلات البدويات اللواتي يُجدن طهي الطعام على طريقة الأسلاف. أطلعني برادة، أنها أستاذة للفلسفة متخصصة في فكر والتر بنجامان، وأن إدمون متقاعد متفرغ للكتابة.

أثناء ذلك ولجت الصالون امرأتان صديقتان لليلى شهيد هما حكيمة برادة، وأوديت. أشعلت هذه الأخيرة بمجرد دخولها سيجارا كوبيا، كانت تدخن منه، ثم تترك الفرصة لإدمون ليتنفس دخانه بدوره. انتبهت إلى أن هناك أحاديث جانبية، هامسة أحيانا، كانت تدور بين ليلى وأوديت لكني لم أتمكن من الإصغاء إليها بدقة، ربما لكوني كنت منشغلا بالحديث مع خوان وإدمون وبرادة. كان إدمون يعمد إلى مداعبة أوديت بين الحين والآخر دعابات جريئة، لكن زوجته لم تكن تبالي بذلك.

انتقل الحديث إلى ترجمة الجزء الأول من سيرة خوان غويتيصولو الذاتية Coto vedado (الحمى الممنوع) إلى اللغة الفرنسية، بعد النجاح الكبير الذي عَرفته في إسبانيا حيث صدرت منها هناك عدة طبعات في وقت وجيز. بموازاة ذلك استفسرني خوان عما إذا كان كاظم جهاد قد ترجم النص المتعلق بجان جوني في الجزء الثاني من سيرته الذاتية الذي يحمل عنوان En los reinos de Taifas (في ممالك الطوائف)، ونشر في مجلة (الكرمل)، ترجمة جيدة فقلنا له أنا وبرادة بصوت واحد: لا شك، فهو متمرس على ذلك. قال: وهل هناك في العربية كلمات نابية؟ فقلت له إن «ألف ليلة وليلة» حافلة بها. وذكر خوان أن مقالته عن القاهرة التي صدرت في مجلة El pais semanal مصحوبة بالصور تحمل اسم «مدينة الأموات»، لكنه كان يفضل استعمال كلمة (قرافة) عوضاً عن ذلك. سألته عما إذا كان ينوي أن يصدر كتابا يضم مقالاته عن المدن الشرقية التي زارها عدة مرات (في تركيا وإيران ومصر وغيرها)، فقال بأنه لا يفكر في ذلك حاليا، لكنه قد يفعل فيما بعد.

مال الحديث إلى نشاط خوان غويتيصولو في الرباط، وكان السبب في مجيئه إليها، فقال بأنه عقد اجتماعا في صباح هذا اليوم مع عبد الرحيم بوعبيد للحديث عن العلاقات المغربية الإسبانية، وأن جريدة «الاتحاد الاشتراكي» أجرت معه بسبب ذلك حوارا، صاغه بوغالب العطار، حول سبتة ومليلية. إثر ذلك دار الحديث عن هاتين المدينتين السليبتين، وحينها لاحظ خوان أن الرأي العام الإسباني أخذ يتغير بصددهما بصورة إيجابية، بينما قال برادة بأن الحكم في المغرب لا يريد أن يصعّد المواجهة حتى لا يحرج السكان المغاربة في المدينتين. وقال خوان في هذا السياق إنه اقترح على بوعبيد تكوين لجنة مغربية-إسبانية للتفكير في وضع المدينتين مؤلفة من أربعين فردا نصفهم مغاربة والنصف الآخر إسبان، على ألا يمثل أعضاؤها أية جهة سياسية. بعد ذلك التفت إلينا، وطلب مني ومن برادة مساعدته باقتراح أسماء الأعضاء العشرين الذين سيمثلون المغرب في تلك اللجنة، فوافقنا على ذلك، على أن نهيئ له اللائحة خلال أسبوع.

عمران المالح

عاد إدمون وأوديت من المطبخ وهما يحملان طبقين بهما فطائر ساخنة عليها كفتة، فأخذنا من الطبقين واستزاد بعضنا نظرا للذة الفطائر. عقب ذلك، دُعينا للتحلق حول مائدة العشاء. نبهني برادة إلى موقعي فجلستُ بين حكيمة وزوجة إدمون وأنا أشعر ببعض الإحراج لكوني لم أكن متعودا على ذلك. وكان أول طبق قدم إلينا من إعداد إدمون، وهو عبارة عن بطاطس حشيت بلوز مقشر، وغمست في ياغورت، ثم طهيت في فرن هادئ. لا أتذكر حاليا المواضيع التي أثيرت أثناء العشاء، لكن يبدو لي أن أحدها كان هو موضوع الطبخ نفسه، وفروق إعداده بين المدن، وبين المسلمين واليهود. لاحظت أن خوان وعبد الهادي أكلا بشهية. وعندما انتهينا من تناول العشاء، الذي كان مصحوبا بأقداح نبيذ، عدنا إلى الجلوس في الصالون، الذي كان خشب مدفأته يوشك أن يتحول إلى رماد.

استأنفنا الحديث عن كتابات خوان فسألته ما إذا كانت نصوص الرحلات التي دوّنها في كتابه «في مملكة الطوائف» قد نُشرت مستقلة في مظان أخرى، فأجاب بأنها وضعت خصيصا للكتاب الذي اشتغل عليه مدة طويلة. وعندما عبّرت له عن كوني لاحظت، في مقالته عن المعماري الكطلاني Gaudi (كاودي)، التي نشرت في مجلة El pais semanal، تأثره بسرد بورخيس، ابتسم مندهشا ثم لم يحر جوابا. ذكرت له بأنني قرأت باهتمام وصفه للقاء الذي جرى بينه وبين (طوماشفسكي) في موسكو بالاتحاد السوفياتي، وأنني معجب بهذا الناقد والمنظر الأدبي، فتدخل برادة وقال لخوان بأنني أهتم بالشكلانيين الروس وترجمت نصوصا لهم نشرت في كتاب صدر ببيروت قبل بضع سنوات.

بعد ذلك دار الحديث عن Jean Genet (جان جوني)، فتحدث عنه خوان بإعجاب بالغ، ثم انطلق يحاول تحليل سلوكه الغريب وتصرفاته المثيرة التي لا تكاد تكون مفهومة. ولاحظ إدمون بأن صدق كتابة جوني نابع من كونه «لم يكن مثقفا». وقال خوان بأنه أعجب أيما إعجاب بكتابه الأخير «الأسير المتيّم»، فوافقه إدمون على ذلك، وقالا معا إنهما يستغربان من كون الكتاب لم يترجم بعد إلى اللغة العربية، مع أنه يمس القضية الفلسطينية، في الصميم، ويلقي عليها وعلى مقاتليها الذين التقاهم في أغوار الأردن أضواء غير معهودة. وتدخل برادة قائلا إن محمود درويش يحاول جاهدا تنظيم ندوة حول الكتاب، لكن هناك، فيما يبدو، عراقيل من جهات متعددة تحول دون ذلك. وفهمنا أن بعض الفلسطينيين لم ترقهم طبيعة الكتاب التي لم تكن تخلو من التباس.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة، عندما وقف خوان يستعد للانصراف. نهض الجميع، فيما انسلت حكيمة وأوديت إلى المطبخ ربما لتحية «الكبيرة». طلب مني خوان نقله هو وعبد الهادي في سيارتي إلى منزل صديقه Del pino قرب عمالة الرباط. ارتدى سترته الواقية، وكذلك فعلنا أنا وعبد الهادي، ثم احتسينا جميعا ماء باردا تحسبا لبرودة الجو في الخارج. سلمنا على ليلى شهيد ومحمد برادة، الذي رافقنا إلى الباب بعد أن لف عنقه بكشكول دافئ، وكذا على إدمون وزوجته اللذين كانا ضيفين على فيلا صاحب «لعبة النسيان». ركبنا السيارة فوضع خوان على عينيه نظارة سوداء، وشرع ينظر إلى مساقط الضوء التي تسبقنا بعصبية أو توجس بسبب ذكرى حادثة سير قديمة تهشم فيها أنفه. نتيجة لذلك كان يجلس إلى جانبي متوثبا، رافضا الاتكاء على مسند المقعد، وكان عبد الهادي في المقعد الخلفي صامتا تماما. كانت شوارع الرباط مضاءة، والأعلام لا تزال منصوبة على الأرصفة، أعلام الاحتفال بعيد العرش. بعض المارة كانوا ما زالوا يتسكعون رغم برودة الجو، فيما أخذ البعض الآخر طريقهم إلى منازلهم.

خوان غويتيصولو